من

مراعاة النظير

في

كلام سيد المرسلين ﷺ

دراسة نظرية تطبيقية من خلال صحيح مسلم

الدكتور

البدرى فؤاد عبد الغنى

مدرس البلاغة والنقد فى الكلية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً ، وأبلغهم كلاماً ، وأبينهم حجة ، وأقواهم إيماناً سيدنا محمد ﷺ النبي العربي الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

هذه هي المرة الثالثة التي التقي فيها مع رسول الله ﷺ وأحظى وأسعد بصحبته وأجلس على مائدته ، أتذوق الطعام الشهي ، وأشرب من ينابيع أفكـــاره وأبحث في كلامه ﷺ وإن لم أكن مؤهلاً ولا مقوماً للكتابة في كلامه ولكن يشفع لي أنه كلما مرَّ عليَّ ذكر رسول الله ﷺ صليت عليه فلعل هذه الصلاة تكون شافعة لي يوم القيامة مع رسول الله ﷺ ، ولذلك صحبته ثلاث مرات :

المرة الأولى في مرحلة الدكتوراه حيث كان موضوعها " الصورة البيانية في الأحاديث النبوية القصصية في الصحيحين البخاري ومسلم " .

والمرة الثانية التقيت معه في أول بحث كتبته بعد مرحلة الدكتوراه وعنوانه " بلاغة الإيضاح بعد الإبهام في صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري صوره ومقاماته .

والآن أجد نفسي أشتاق إلى صحبته مرة ثالثة ، فأخذت أفكر فيما اكتب وكلامه ﷺ تتناثر منه النكات البلاغية من كل الجهات فأثرت أن أكتب عن شيء يتعلق بعلم البديع ، لأن المرة الأولى كانت مع علم البيان والمرة الثانية كانت في جزئية من علم المعاني فكان حتماً عليَّ أن أكتب في علم البديع ؛ لأكون قد شرفت بالجلوس على مائدة رسول الله ﷺ في علوم البلاغة الثلاثة فوقع اختياري على لون من ألوان البديع يسمى " مراعاة النظير " وهذا اللون من الألوان التي ذكرت في كتب الأقدمين ولكنهم لم يحددوه بحد ولم يحسموا التعريف فيه وهو من الألوان التي تستحق العناية والاهتمام حتى يظهر في صورة واضحة ، لأن البلاغيين تارة يعرفونه بالتناسب ، وتارة بالمؤاخاة وتارة بالائتلاف وتارة بالتوفيق ومن يدقق النظر في هذه المعاني يجدها كلها معان تدور حول ما يراد من مراعاة النظير ، فحاولت في هذه الدراسة أن أحدد مفهوم مراعاة

النظر وأجمع وجوهه المتفرقة المتناثرة فى ثنايا الكتب ، وأبين خصائصه من خلال ذروة البلاغة فى الكلام البشرى فى حديث رسول الله ﷺ ، فضلاً عن أن علم البديع على وجه العموم من العلوم التى لم تلق اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين مثل علم المعانى وعلم البيان أضف إلى ذلك أن علم البديع قد لقى بعض الظلم من الذين وصفوه بأنه يأتى لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية فحسب فعمدت جاهداً أن أسهم على قدر استطاعتى فى رفع الظلم عن هذا العلم وأثبت أن التحسين الذى يضفيه على الكلام تحسين ذاتى يقتضيه المقام ويستدعيه الحال ، وليس تحسيناً عرضياً .

واخترت دراسة التطبيق على صحيح مسلم لإجماع علماء الأمة من السلف والخلف على صحته ، ولما يمتاز به من جمع طرق الحديث فى موضع واحد بأسانيده المتعددة ودقته المتناهية فى إثبات ألفاظ الروايات مما يؤهله لأن يكون أنسب المظان للدراسة البلاغية فى النص النبوى .

فجاء البحث فى مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة . أما المقدمة فتحدثت فيها عن أسباب اختيارى لهذا الموضوع .

وأما التمهيد : فذكرت فيه دراسة موجزة عن صحيح مسلم ومؤلفه

وأما الفصل الأول : مفهوم مراعاة النظير عند علماء البلاغة .

وأما الفصل الثانى : وجوه مراعاة النظير وتطبيقها على صحيح مسلم .

وأما الخاتمة : فذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة .

وبعد فهذه نيتى وأسأل الله التوفيق والسداد فى وجهتى ، وأن يجنبنا الخطأ فى القول عن نيه دون علم ، إنه ولى ذلك والقادر عليه { رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } .

التمهيد

نبذة مختصرة عن صحيح مسلم ومؤلفه

أولاً صحيح مسلم هو ثانى أفضل كتاب صنف فى صحيح الحديث ، ووسم به ووضع له خاصة ، سبق البخارى إلى ذلك ثم لم يلحقهما لاحق ، وكتابهما أصح ما صنفه المصنفون .

قال الإمام مسلم : لو أن أهل الحديث يكتبون مائتى سنة الحديث فمدارهم على هذا المسند يعنى مسنده الصحيح .

وقال : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح وليس له علة أخرجته .

وورد عن مسلم أنه قال : ما وضعت شيئاً فى هذا المسند إلا بحجة وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة .

وكان الحسين بن على النيسابورى يقول : ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج فى علم الحديث[1] .

عدد أحاديث صحيح مسلم :

أما عن عدد أحاديث كتاب مسلم فقد ذكر أحد معاصريه وهو أبو قريش الحافظ أن مسلما جمع فى كتابه أربعة آلاف حديث وكلها أصول غير مكررات [2] .

نسب مؤلف الصحيح :

هو : أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيرى النسب ، النيسابورى الدار والوطن أحد رجال الحديث من أهل خراسان [3] .

---

١ - ينظر : المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ص ٨٣ - تحيى بن شرف بن مرى النووى - المكتبة الأزهرية .

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٤٠ - تحقيق : عصام الصبابطى وحازم محمد وعماد عامر - دار الحديث - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

٣ - انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ١٣ / ١٠٠ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٥٨٨ ، ٥٩٠ - دار الفكر العربى

مولده ونشأته :

ولد بعد المائتين من الهجرة ، واختلف فى تحديد السنة التى ولد فيها فقيل : ٢٠٢ هـ وقيل : ٢٠٤ هـ وقيل ٢٠٦ هـ [1].

نشأ الإمام مسلم فى بيت علم ، فقد قرأ القرآن وحفظه فى صغره وتلقى العلم أول ما تلقى على أبيه الحجاج الذى كان من أئمة العلم كما ذكر بعضهم [2] وقد ذكر الذهبى فى تذكرته أن أول سماعه للحديث كان سنة ثماني عشرة ومائتين [3]

وفاته :

توفى - رحمه الله - عشية يوم الأحد ، ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين وهو ابن خمس وخمسين سنة [4].

---

١ - ينظر : وفيات الأعيان ٥ / ١٩٥ .

٢ - ينظر : تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٠ / ١١٥ - الطبعة الأولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية فى الهند سنة ١٣٢٧ هـ .

٣ - ينظر : تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٨٨ .

٤ - ينظر : البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ٣٩ - دار إحياء التراث العربي ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .

مفهوم مراعاة النظير عند العلماء

مما لاشك فيه أن الكلمة كالنبتة لها ظروف تحيا فيها وتعيش ، وبقدر ما تكون الملائمة الطبيعية بينها وبين أخواتها فى الأسلوب وبقدر ما تكون تعارقا ويكون جهالها فالكلمة فى تركيبها تحيا وتعيش إذا تحققت لها الملائمة مع مفردات التركيب التى سيقت فيه ، وبالتالي فهي تفقد حيويتها إذا اختلفت طبيعتها عن طبيعة التركيب الذى هو الوسط الموجودة فيه ، وما ينطبق على الكلمة ينطبق أيضا على التركيب وتسبته إلى بقية التراكيب الموجودة معه فى الموضوع وكذلك بالنسبة للمعانى ، فإن المعنى الواحد إنما يكتسب حيويته بالتعاقر والترابط مع المعانى الأخرى المشتركة معه فى جسم الموضوع .

نضرب لذلك مثلاً : السمكة حيث لا تستطيع أن تحيا خارج الماء ولا تنتظر أن ترى منها الحيوية والرشاقة فى الحركة فى الهواء الطلق لأن الوسط مختلف ولأنها غير مهيأة له وليست هناك ملائمة طبيعية بينها وبينه أما الماء فهي تحيا وتنسجم قدراتها فى وسطه فتكون الرشاقة فى الحركة والجمال فى السباحة والإبداع فى السعي وما ذاك إلا لتحقق عنصر الملائمة الطبيعية بين السمكة والوسط الذى هو الماء .

وشأن الكلمة فى الأسلوب أن تتلاءم مع اعتبارات السياق والمعنى حتى لا تفقد حياتها ، وهي إن جاءت فى الأسلوب حشواً أو غير ملائمة للمعنى الذى سيقت من أجله ، كانت مثل السمكة التى تخرج من الماء فإنك لا تنتظر منها حيوية ولا رشاقة بل خروجها من الماء سيؤدي إلى موتها بعد فترة قصيرة من الزمن .

ومراعاة النظير فى اللغة كالملائمة الطبيعية للكائنات فى الخلق فكما ترى الجمال فى الطبيعة بسبب هذه الملائمة فإن مراعاة النظير تبعث على

تحقق الجمال الطبيعي الذى لا شذوذ فيه بسبب ملاءمة المفردات وتجانسها وتناسقها وائتلافها [١].

وقد عرف السكاكى مراعاة النظير بقوله : هى عبارة عن الجمع بين المتناسبات ، كقوله : [٢]

وحَرْفٍ كنُونٍ تحتَ رَاءٍ ولم يَكُنْ
بدالٍ يؤمّ الرَّسْمَ غيرَةُ النقطُ [٣]

ومعنى هذا البيت : أن الشاعر يصف راكب الناقة الذى يقصد إلى الطلل البالي الذى أثر فيه نزول المطر حتى غير من شكله ، فوصف الناقة " الحرف " بأنها تشبه حرف النون وأن الرجل من فوقها يشبه حرف الراء ولم يكن يشبه حرف الدال ، ثم ان هذا الراكب يقصد الرسم الذى أثر فيه هطول الأمطار حتى غيرته .

فقد ناسب فى جمعه بين حروف الهجاء وان كان قصده غيرها ؛ لأن مراده بـ " حرف " الناقة ، وبـ " الراء " الراكب الذى يضرب رأسها ، وبـ "الدال " الرافق بها ، وبـ " الرسم " رسم المحل ، وبـ " النقط " المطر والمراعاة فى ألفاظ البيت ظاهرة .

بينما نجد الخطيب القزوينى عرفها بقوله : هى أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد [٥] كقوله تعالى : { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

---

١ – ينظر : مراعاة النظير فى كلام الله تعالى الدرس البلاغى – د / كمال الدين عبد الغني المرسى ص ٨ ، ٩ – دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠م .

٢ – البيت للمعري ينظر : سقط الزند من قصيدة بعنوان : (ما قصطوا إلا المال) ص ١٧٧ – دار صادر – بيروت .

٣ – مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤٢٤ – تحقيق / نعيم زرزور – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

٤ – قوله " لا بالتضاد " خرج الطباق لأنه جمع بين أمرين متضادين أى بينهما تعلق الفاعل

بِحُسْبَانٍ } [١] وقول بعضهم للمهلبى الوزير : أنت أيها الوزير إسماعيلى الوعد ، شعيى التوفيق ، يوسفى العفو ، محمدي الخلق » [٢].

حيث جمع الشمس والقمر وهما متناسبان ، وفي قول بعضهم للمهلبى تناسب بين إسماعيل ، وشعيب ، ويوسف ومحمد ﷺ ، لأنهم أنبياء ، وناسب بين الوعد والتوفيق والعفو والخلق لأنها أخلاق .

فى حين أننا نجد صفى الدين الحلى يقول عن هذا الأمر ، وهو مراعاة النظير : هو جمع شئ إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه [٣] .

ويقول ابن حجه الحموي فى معنى مراعاة النظير : هذا النوع أعنى مراعاة النظير يسمى التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة وهو فى الإصلاح : أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ أو معنى لمعنى ، إذا لقصد جمع شئ إلى ما يناسبه أو ما يلائمه من أحد الوجوه ، كقول البحترى :

من جلنار ناضر حده ∴ وأذنه من ورق الآس ؟ [٤]

فالمناسبة هنا بين الجلنار والآس والنضارة .

ومثل قول بعضهم فى مدح آل النبى ﷺ :

أنتم بنو طه ونـون والضحى ∴ وبنو تبارك فى الكتاب المحكم
وبنو الأبطاح والمشاعر والصفا ∴ والركن والبيت العتيق وزمزم

---

١ – الآية ٥ من سورة الرحمن .

٢ – الإيضاح الجلد الثانى ص ١٩ ، ٢٠ – تحقيق / خفاجي – الطبعة الثالثة – المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

٣ – شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع ص – تحقيق د/ نسيب نشاوى – دمشق ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

٤ – الجلنار : زهر الرمان ، والآس : شجر دائم الخضرة وورقه وردي اللون ، والبيت لم يستدل عليه فى الديوان – ط دار الكتب العلمية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

هذا الناظم أحسن في مراعاة النظير ، وأتى في البيت الأول بحسن المناسبة بين أسماء السور وفي البيت الثاني بحسن المناسبة بين الجهات الحجازية [1]

ولعل مراعاة النظير هي المزية التي تحدث عنها الإمام عبد القاهر الجرجاني وجعل يردد معناها في غالب صفحات كتابه دلائل الإعجاز دون أن يفصح عنها وإنما جاء حديثه عنها ضمنا وليس تصريحا عندما كان يتكلم على البلاغة والفصاحة ولذلك نراه يقول : هل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها ... الخ كلام عبد القاهر [2] .

ومن خلال تعريف العلماء لمراعاة النظير ومن خلال حديث الإمام عبد القاهر عنها ضمنا نستطيع أن نقول : إن مراعاة النظير هي عبارة عن التناسب والتلازم في الكلام بحيث يجمع في الكلام بين الشيء وما يناسبه لفظاً للفظ أو لفظاً لمعنى أو معنى لمعنى .

وقد ذكر البلاغيون بعض الألوان الأخرى مثل المناسبة ، والمواءمة ، والائتلاف ، وحسن السبك والانسجام وتشابه الأطراف والمشاكلة واللف والنشر ، وبعضهم جعل هذه الألوان أبواباً مستقلة بعيدة عن مراعاة النظير وبعضهم ألحق بعضا منها بمراعاة النظير .

---

١ - ينظر : عرائس الأدب وغاية الأرب ١ / ٢٩٤- ٢٩٨- شرح عصام شعيو - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت - لبنان .

٢ - ينظر : دلائل الإعجاز ص ٤٤ - ٤٨ - تحقيق / محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

فعلى سبيل المثال نجد الخطيب القزويني عندما كان يتحدث عن مراعاة النظير ذكر من أسمائها : التناسب والائتلاف والتوفيق [1] ، وكأنه يلحق هذه الألوان بمراعاة النظير .

بينما نجد صاحب الإشارات والتنبيهات العلامة محمد علي الجرجاني يذكر المناسبة تحت لون منفرد من ألوان البديع [2] وألحق بها تشابه الأطراف حيث قال : " ويلحق بالمناسبة ما سمي : بتشابه الأطراف " [3] في حين ذكر المشاكلة تحت لون منفرد من ألوان البديع [4] .

كذلك اللف والنشر ذكره تحت لون منفرد [5] .

كذلك صاحب جواهر البلاغة قد ذكر هذه الألوان منفردة ومستقلة بعضها عن بعض [6] .

ولعل من ينعم النظر ويدقق الفكر في هذه الألوان التي ذكرها علماء البلاغة منفردة ومستقلة بعضها عن بعض وذكروا كل مسمى منها تحت لون من ألوان البديع يجد تعريفات هذه الألوان الثمانية بينها صلة قوية ورابطة وثيقة فكلها تدور حول التناسب والتلاؤم بعض الألفاظ بعضها مع بعض وكلها معان تحقق الثمرة المرجوة من مراعاة النظير .

ولذلك يجدر بنا أن نجمع كل هذه الألوان تحت مسمى واحد وهو " مراعاة النظير " وفي ذلك تقليل للألوان البديعية التي أربت على المائة حتى

---

١ - الإيضاح المجلد الثاني ٩ / ١٩ .

٢ - ينظر : الإشارات والتنبيهات محمد علي الجرجاني ص ٢٣٩ - تحقيق د / عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

٣ - الإشارات والتنبيهات ص ٢٤١ .

٤ - المرجع السابق ص ٢٤٢ .

٥ - المرجع السابق ص ٢٥٠ .

٦ - ينظر : جواهر البلاغة ص ٢٩٣ : ٣١٤ - دار ابن خلدون .

أدى ذلك إلى تشتيت ذهن القارئ ، فضلاً عن أن هذه الألوان مغزاها وغرضها واحد فجمعها تحت مسمى واحد هو الأليق بها وبمسمى ذلك وجوه مراعاة النظير ، وتتمثل في ثمانية وجوه :

الوجه الأول : المناسبة — الوجه الثاني : المواخاة

الوجه الثالث : الائتلاف — الوجه الرابع : المشاكلة

الوجه الخامس : حسن النسق — الوجه السادس : الانسجام

الوجه السابع : تشابه الأطراف — الوجه الثامن : اللف والنشر

وسوف نعرج لتعريف هذه الوجوه في الفصل الثاني الذي نطبق فيه مراعاة النظير على كلام سيد المرسلين من خلال صحيح مسلم ، حتى لا يكون التطبيق بمعزل عن الدراسة النظرية .

ومصطلح مراعاة النظير بهذا المعنى سوف نجده متحققاً بكثرة في كلام سيد المرسلين ﷺ ، فإن الكلمة في الحديث النبوي إلى جوار أختها ترطبها حسن المناسبة وأخوة الجوار ، فلا يستطيع أحد أن يستبدلها بكلمة أخرى أو يقدم لفظاً ويؤخر أخرى ؛ لأن كلام سيدنا رسول الله ﷺ معجزة تظهر فيه الصنعة الإلهية وهذا مصداق قول الله تعالى : { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ }[1] فكلامه ﷺ يتحقق فيه الصنع الإلهي ولا يمكن مضارعته ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن كتابه كلامه في بداية البعثة التي لا يظن أنه من القرآن لأنه قريب منه فكان يقول : " لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه "[2] .

---

١ - الآيات ٣ ، ٤ من سورة النجم

٢ - أخرجه مسلم في كتاب الزهد - باب التثبت في الحديث ٤ / ٢٠٠٥ رقم ٣٠٠٤

ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يستطيعون تمييز كلامه ﷺ مما دس عليه ونسب إليه من الحديث وكانوا يقولون عن الحديث الزائف (إنه لا تلوح عليه أنوار النبوة) .

وليس ذلك عليهم بغريب فإذا كانوا يستطيعون أن يميزوا لفظ القرآن الكريم عندما تغير عن طريق الخطأ ، ألا يستطيعون تمييز كلام سيدنا رسول الله ﷺ من كلام غيره ، فالرجل الأعرابي الأمي الذي سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى في سورة المائدة : { وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[1] فالقارئ أخطأ في فاصلة الآية وقال : " والله غفور رحيم " فقال له أعد علي قراءة هذه الآية حتى في المرة الثالثة أتى بها القارئ صحيحة وقال " والله عزيز حكيم " قال : نعم هكذا خلقت ، فعجب القارئ من هذا الرجل وقال له : أتحفظ القرآن ؟ قال : لا قال له : كيف استطعت أن تتعرف على خطئي ، فقال له بذوقه وحكمته وبلاغته ، عز فحكم فقطع ، ولو كان غفوراً رحيماً ما قطع يد السارق .

ومن يعش مع كلام خير البرية يجد فيه الإبداع والإمتاع لأنه نسج راق لمعاني كلام الله - عز وجل - وسوف يجد فيه مراعاة النظير متحققة بكثرة وعلى مدى واسع وهذا هو ما ستفصح عنه الصفحات القادمة إن شاء الله .

الوجه الأول

المناسبة

وهي أن يجمع في الكلام بين كلمات متناسبة ، كقوله تعالى : { الشَّمْسُ والْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [١] ، فإن القمر يناسب الشمس ، والشجر يناسب النجم ، لأن النجم نبات ليس له ساق [٢] .

والمناسبة من أهم وجوه مراعاة النظم الذي عرفه علماء البلاغة : بأنه الجمع بين أمرين متناسبين بغير التضاد [٣] . أي مناسبة وضع الكلمة إلى جوار أختها في نظم متماسك بحيث تتوارد فيه المعاني في رباط وثيق وبيان محكم ويظهر ذلك لنا جليا في أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ " [٤] .

فتأمل دقة المناسبة في كلامه ﷺ ، فالجار يناسبه الإحسان " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره " وقد أوصى الله تعالى بالإحسان إليه في كتابه العزيز فقال : { واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وبِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ والْجَارِ ذِي الْقُرْبَى والْجَارِ الْجُنُبِ والصَّاحِبِ

---

١ - الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الرحمن .

٢ - انظر : الإشارات والتنبيهات ص ٢٩٣ .

٣ - الإيضاح ٢/ ١٩ .

٤ - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير ١ / ٧٥ رقم ٧٥ - تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى - دار الحديث القاهرة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

بِالْجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً } [١] .

وقد أكد الرسول ﷺ حق الإحسان إلى الجار في حديث آخر فقال : " مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ لَيُوَرِّثَنَّهُ " [٢] .

وقوله ﷺ في بداية الحديث " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر " يدل على أن هذه الخصال من خصال الإيمان " [٣] .

أضف إلى ذلك دقته ﷺ في اختيار حرف العطف " الفاء " دون غيره من حروف العطف وفي ذلك ترغيب ومسارعة ومبادرة إلى الإحسان إلى الجار دون تأخير وبدون تفكير هل يستحق هذا الجار الإحسان أم لا يستحق فإن لم يستحق هو فأنت أهل للإحسان والإكرام ، فضلاً عن أنك بإحسانك إلى جارك تنفذ أوامر الله سبحانه وتعالى - وتطبق سنة رسول الله ﷺ فقد كان يعامل جيرانه المشركين حتى معاملة حسنة ، فما بالك عندما يكون جارك مسلماً .

ناهيك عن تعبيره عن الإحسان بصيغة الأمر " فليحسن " أمر من رسول الله ﷺ يوجهه لمن أراد أن يكون كامل الإيمان ، أضف إلى ذلك أن كلمة الإحسان في قوله " فليحسن " تفيد العموم والشمول ولم تقيد الإحسان بشيء معين ، وإنما يجب على الجار أن يواسي جاره عند مصيبته ، ويهنئه عند فرحه ويأخذ بيده عند ضلاله ، ويفرح لكربه عند شدته ، ويعود عند مرضه ، يشيعه عند موته ، كل ذلك جمعه رسول الله ﷺ في كلمة واحدة " فليحسن " ولا عجب في ذلك فهو الذي أوتي جوامع الكلم ومثله معه .

---

١ - الآية ٣٦ من سورة النساء

٢ - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في حق الجوار ٤ / ٣٣٨ - تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية .

٣ - جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ١٦٤ - دار المعرفة .

فكلمة الإحسان هنا فى أتم المناسبة مع الجار ولو حاولنا أن نستبدلها بكلمة أخرى ما استطعنا ، ولو استطعنا ما كانت تؤدى نفس الغرض الذى يقصده ويهدف إليه سيدنا رسول الله ﷺ فلو قلنا مثلاً : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليبلغ جاره " ما كانت تؤدى المغزى الذى أراده سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لأن البلغ قد يكون من غير قصد ، والإحسان لا يكون إلا مع القصد للقول : ينفعنى العدو بما فعله بى إذا أراد بك خيراً ، فوقع نفعاً ولا يقال أحسن إلى فى ذلك "[1].

والإكرام يناسب الضيف فى قوله " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " والضيافة من آداب الإسلام وخلق النبيين والصالحين وقد أوجبها الليث ليلة واحدة واحتج بالحديث ليلة الضيف حق على كل مسلم "[2].

وعامة الفقهاء على أنها من مكارم الأخلاق ، وحجتهم قوله ﷺ " جائزته يوم وليلته "[3] والجائزة : العطية والمنحة والصلة وذلك لا يكون إلا مع اختيار وقوله " فليحسن وليكرم " يدل على هذا أيضاً إذ ليس يستعمل مثله فى الواجب ، مع أنه مضموم إلى الإكرام للجار والإحسان إليه وذلك غير واجب ، وتأولوا الأحاديث على أنها كانت فى أول الإسلام ، إذ كانت المؤاساة واجبة حينئذ[4].

١- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ص ٢٠٤ - تحقيق / أبى عمرو حماد زكى - المكتبة التوفيقية .
٢ - أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة - باب : ما جاء فى الضيافة ٣ / ٣٤٣ رقم ٣٧٥٠ .
٣ - أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة - باب : جاء فى الضيافة ٣ / ٣٤٢ رقم ٣٧٤٨ - المكتبة العصرية .
٤ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .

وتتمثل دقته ﷺ أيضاً فى اختياره حرف العطف " الفاء " فى قوله " فليكرم ضيفه " أى : يسارع إلى تقديم الطعام والشراب للضيف ربما يكون جائعاً فضلاً عن إتيان المناسبة فى صيغة الأمر " فليكرم ضيفه " .

والسكوت يناسب القول فى قوله " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت " أى إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يثاب عليه واجباً أو مندوباً فليتكلم وإن لم يظهر له أنه خير يثاب فليمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوى الطرفين وعلى هذا يكون الكلام المباح مأموراً بتركه مندوباً إلى الإمساك عنه مخافة من الجرارة إلى المحرم أو المكروه وهذا يقع فى العادة كثيراً وغالباً وقد قال الله تعالى : { مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }[1][2].

والسكوت هنا يناسب القول عندما يكون الكلام ليس فيه خير وقد اختار الرسول ﷺ الألفاظ المناسبة حيث استعمل مادة السكوت لأنه السكوت بمعنى الصمت ، يصمت فلا يتكلم أبدا ، حيث جاء فى لسان العرب لابن منظور " سكت الصائت يسكت سكوتاً إذا صمت "[3].

كما أن لفظ سكت يستعمل عندما يعتمد المتكلم عدم الكلام يقال : " سكت تعمداً السكوت "[4] وهذا ما يريده رسول الله ﷺ من أنه عندما يكون الكلام ليس فيه خير فهو ينصحهم بعدم الكلام أبداً بخلاف مادة الصمت ، لأن مادة الصمت لا تؤدى نفس هذا الغرض لأن من معانى الصمت إطالة السكوت[5] ثم بعد ذلك يتكلم .

---

١ - الآية ١٨ من سورة ق .
٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٢٩٥ .
٣ - لسان العرب ٦ / ٣٠٢ (سكت) .
٤ - المرجع السابق .
٥ - لسان العرب ٧ / ٤٠٠ (صمت) .

ومن الأحاديث التي تظهر فيها المناسبة بصورة واضحة قوله ﷺ

" عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " [1].

هذا الحديث من أحاديث الصفات واختلف العلماء في كيفية النزول الإلهي على مذهبين :

أحدهما : وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق.

والثاني : مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين :

أحدهما : تأويل مالك بن أنس وغيره ومعناه نزول رحمته وأمره وملائكته كما يقال فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره .

والثاني : أنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف [2] .

وفي هذا الحديث ينبه الرسول ﷺ أمته على أن آخر الليل للصلاة والدعاء والاستغفار وغيرها من الطاعات أفضل من أوله ، لأن المولى سبحانه وتعالى في آخر الليل ينادي على عباده ويقول لهم " من يدعوني فأستجيب له " ، والدعاء يناسبه الاستجابة ، لأن الداعي يطلب من ربه ويتضرع إليه بأن

---

١ - أخرجه مسلم في باب صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل والإجابة فيه ١ / ٥٤١ - ٥٤٢ رقم ٧٥٨ .

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ٢٩٤ .

يستجيب له ، ولذلك كانت الاستجابة في أتم المناسبة بالنسبة للدعاء فضلاً عن استعمال الرسول ﷺ حرف العطف " الفاء " فاستجيب " ليدلل على سرعة الاستجابة وعلى قيمة هذه الأوقات لأن المولى سبحانه وتعالى يكون فيها قريب من عباده : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }[1] أضف إلى ذلك ورود الاستجابة في صيغة المضارع " فاستجب " التي تدل على الدوام والاستمرار .

فإجابة الدعاء ليس لها وقت محدد ولا تخص بزمن دون زمن ولا بأناس دون آخرين فهذا فضل الله يمن به على عباده ، والله أكرم من أن يقطع فضله من عباده فهو الذي أمرنا بأن ندعوه ونتضرع عليه بالاستجابة : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }[2] فضلاً عن أنه يحب من يدعوه تفضلاً منه وكرماً ويغضب على من يعرض عن الدعاء أو يغفل عنه وقدر حذرنا من ذلك الرسول الأمين - الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى - عليه الصلاة والسلام - فيما نزل عليه من القرآن { قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } .

وبالدعاء يكون المؤمن دائم الصلة بربه والتضرع لمقام الألوهية وشرف أي شرف أن يدعوا الخالق وهو الغني الحميد عباده إلى الدعاء ليفيض عليهم عطاء سخيا يكون خيرا لهم ونجاة في الدنيا والآخرة ، فيا إلهي ما أعظمك ويا رب ما أكرمك !! وبذلك يتبين لنا كيف اختار الرسول ﷺ ألفاظه بدقة متناهية عندما ناسب الاستجابة للدعاء دون أي لفظ آخر كالقبول مثلاً ولا عجب في ذلك فهذه هي البلاغة النبوية التي سجدت الأفكار لأبيها وحسرت العقول دون غايتها لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوع ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

---

١ - الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

٢ - من الآية ٦٠ من سورة غافر .

وإن شئت فقل إن " ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة محلولة الفصول حتى ليس فيها كلمة ملفصولة وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ "[1].

والسؤال يناسبه الإعطاء في قوله " ومن يسألني فأعطيه " وهذا من فضل الله على عباده فأمرهم بالسؤال ووعدهم بالعطاء لأن خزائنه لا تنفد وناهم عن سؤال غيره فكيف الإنسان يسأل من يغلق عنه بابه ويظهر له فقره ويوارى عنه غناه ويدع من يفتح له بابه ليل نهار ويظهر غناه ويقول : { وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ } [2] وما أجمل قول القائل :

لا تسألن بني آدم حـاجـة ∴ وسل الذي أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله ∴ وبني آدم حين يسأل يغضب[3]

وقد أورد ﷺ السؤال في صيغة المضارع " يسألني " التي تدل على الدوام والاستمرار فالسؤال ليس له وقت محدود ولا زمن معلوم ، ففي أي وقت يسأل العبد ربه فسيجد بابه مفتوحاً ويأتيه الفرج على الفور ولذلك استعمل رسول الله ﷺ حرف العطف " الفاء " في قوله " فأعطيه " وعد بالعطاء إذا طابت مطاعمنا .

---

١ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - تأليف / مصطفى صادق الرافعي ص ٢٩٧ - دار الفكر العربي ١٤١٩ هـ - ١٩٩٥ م .

٢ - من الآية (٧) من سورة المنافقون .

٣ - ورد البيتان غير منسوبين في كتاب " المستطرف في كل فن مستظرف " للأبشيهي - محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي الحلبي شهاب الدين أبو الفتح ١/ ٨٥ - الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٠٤ هـ

أضف إلى ذلك دقته ﷺ في اختياره الإعطاء دون أي لفظ آخر مثلاً كالهبة من يسألني فأهب له ، لأن الهبة تقتضي التمليك ، فالإنسان عندما يهب لشخص ما شيئاً لا يستطيع رده بعد ذلك ، بخلاف الإعطاء فالله - تبارك وتعالى - يعطي وإذا لم يجد شكراً على هذا العطاء وحفظاً لهذه النعم فهو قادر على نزعها إذا لم يتوفر أسباب دوامها ، وهذا مصداق قوله تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1] .

والغفران يناسب الاستغفار في قوله " ومن يستغفرني فأغفر له " ، لأن المستغفر ربه سبحانه وتعالى في أشد الاحتياج إلى الغفران والعفو والصفح ولذلك لمجد رسول الله ﷺ اختار ألفاظه بدقة متناهية وقد تناسب بعضها بعضاً ، فالاستغفار إنابة إلى رحاب الله وطلب العفو والمغفرة فكان يناسبه الغفران ، واختار للدعاء الاستجابة ، واختار للسؤال الإعطاء والثلاثة تنهل من منهل واحد وترنو إلى التبتل والخضوع والرجاء إلى رب واحد لا إله إلا هو غفور رحيم ، ولاسيما أن الدعاء والذكر والاستغفار مفتاح الرحمة ومن سره أن يستجيب الله الدعاء له عند الشدائد والكرب فليكثر من الاستغفار ومن الصلاة على رسول الله ﷺ ، فتلك بادرة على أنه من أولياء الله يكفيه في أمور دنياه وأخراه .

وهكذا اختار الرسول ﷺ ألفاظه بدقة متناهية فكانت متناسبة أتم المناسبة لأن المتكلم إذا لم يراع الجمع في كلامه بين الأمور المتناسبة عد ذلك عياً وخطأ ، كما جاء في قول الكميت عندما اجتمع مع نصيب وذي الرمة الشاعرين فأنشد الكميت :

---

١ - الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

ثم مثل طفان بالعلماء بالغة

وإن تكامل فيها الإنس والخشب[1] ... [2]

فقيل لخشب عقدة فقال له الكميت : ماذا تعني ؟ قال عطاك فإنك

باعدت في القول ، أين الإنس من الخشب ، ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لياة في جفونها عوّة لعس ... وفي اللثات وفي أنيابها شنب[3][4]

فخشب أوزك أن الكميت لم يراع المناسب حين جمع بين أمرين متباعدين ، وأوضح له أن الصواب في مثل هذا هو بيت ذي الرمة الذي جمع فيه بين الشفتين واللثات والأنياب وهي أمور متناسبة كما في قول أبي نواس عندما لم يراع المناسب في كلامه أيضاً عندما قال :

وقد خلفت بها ... منّي ضرورة لا الكذب

يزنبةً زمزم والحو ... ض والصفا والمحصب[5]

فإن الحوض لا يناسب مع زمزم والصفا والمحصب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجري مجراها مما هو منوط بيوم القيامة أما زمزم والصفا والمحصب فتذكر مع الركن والحطيم وما يجري مجراها[6] .

أما في الحديث النبوي الشريف فقد رأينا دقة المناسبة بين الأمور والجمع بين المعاني المؤتلفة .

---

١ - الخشب : ما لا رقة ولا طراوة في اللسان .

٢ - قيل في الديوان ص ٣٩ - تحقيق : د/ محمد نبيل طريفي - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م وهو برواية

وقد رأيتها حوراء معبعبة ... بينا تكامل فيها الإنس والخشب

٣ - اللعس : حمرة في الشفتين ، والعوة : حمرة مقبولة بسواد ، واللعس : سواد مستحب في الشفة

٤ - البيت في الديوان ص ٢٢ من القصيدة بعنوان : ما بال عينك - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م .

٥ - الأبيات في الديوان من قصيدة بعنوان : حدائق ملك تغلي ص ٦٨ - شرح / علي الأهور - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

٦ - ينظر : علم البديع " دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومصادر البديع " - د / مسعود عبد الفتاح فوزه ص ١٨٩ : ١٩٨ .

وقد وجدنا ابن أبي الإصبع المصري يتحدث عن المناسبة في كتابه تحرير التحبير [1] وبديع القرآن [2] ويقسمها إلى قسمين :

١ - مناسبة في المعاني ٢ - ومناسبة في الألفاظ

فالمناسبة المعنوية هي : أن يتحاوز المتكلم المعنى لم يعبر كلامه به بمناسبة معنى دون لفظ ، والفرق بين هذا الضرب وبين اللائمة أن اللائمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها ، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها

أما المناسبة اللفظية فهي توخي الإتيان بالكلمات متوازنات وهي على ضربين : تامة وغير تامة ، فالتامة أن تكون الكلمات مع الازدواج متفقة والغير تامة ليس بمتفقة فالمتفقة غير لازمة للمناسبة .

ومن شواهد المناسبة التي ليست تامة في الكتاب العزيز قوله تعالى { ق والقرآن المجيد (١) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب } [3] .

ومن شواهد التامة في السنة النبوية قول رسول الله ﷺ لما كان يرقي الحسن والحسين - عليهما السلام - " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " فقال النبي ﷺ لامة ولم يقل ملمة وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية التامة [4] .

وبذلك يكون ابن أبي الإصبع جعل المناسبة على ضربين : مناسبة في المعاني ومناسبة في الألفاظ ونجد المناسبة بضربيها محققة بكثرة في أحاديث رسول الله ﷺ التي وردت في صحيح مسلم .

---

١ - ينظر : تحرير التحبير من ٣٦٢ - ٣٧١ - تحقيق د/ حفني محمد شرف - نهضة مصر للطباعة والنشر الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م

٢ - ينظر : بديع القرآن ص ١٤٥ - ١٥٠ - تحقيق د/ علي محمد شرف - نهضة مصر للطباعة والنشر

٣ - الآيتان ١ ، ٢ من سورة ق .

٤ - ينظر : تحرير التحبير ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

ومن المناسبة المعنوية ما روى عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ إذا كبر في الصلاة سكت هنيهة قبل أن يقرأ فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد [1]

هذا الحديث دعاء جميل كان يدعو به رسول الله ﷺ في مفتتح صلاته وفي ذلك تعليم وإرشاد لأمته لكي يفتتحوا صلاتهم بما كان يفتتح به رسول الله ﷺ ليناهم الثواب والأجر العظيم من الله سبحانه وتعالى .

ونلاحظ بين لفظة الثلج ولفظة الماء ولفظة البرد تناسباً معنوياً سار الحديث به متلاحماً شديد ملاءمة الألفاظ لأن هذه الألفاظ يناسب بعضها بعضاً لأن قوله ﷺ " اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد " دعاء فيه مزيد تأكيد لطلب المغفرة فقد عبر بذلك عن غاية المحو للسيئات والمغفرة للذنوب ، فإن الثوب إذا تكرر عليه ثلاثة أشياء منقيه كان في غاية النقاء وبذلك يكون ﷺ قد سأل ربه أن يطهره التطهير الأعلى الموجب لجنة المأوى والمراد طهرني منها بأنواع مغفرتك .

والنكتة البلاغية في استعمال الثلج والبرد بعد الماء أنهما ماءان لم تمسهما الأيدي ولم يمتهنهما الاستعمال ومن ذلك مراعاة البرودة فيهما التي تضاد ما يرافق العذاب من الحرارة المرتفعة ، فكأنه جعل الخطايا بمنزلة جهنم لكونها مسببة عنها فعبر عن إطفاء حرارتها بالغسل وبالغ فيه باستعمال المبردات وعهما يكن من أمر فإن الصور الثلاث تحوم حول معنى واحد وهو طلب المغفرة

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة ١ / ٤٢٤ رقم ٥٩٨ .

والرحمة من الله - تبارك وتعالى - ولكن هذا المعنى عرض من خلال هذه الصور الحسية الملموسة المتناسبة[1] .

وتأمل دقة ترتيبه في الألفاظ المناسبة : " اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد " حيث بدء المناسبة بصيغة الدعاء " اللهم " وهي نداء الألوهية المسيطرة على مقاليد كل شيء .

وقوله "اغسلني" مجاز بمعنى كما يغسل ماء الثلج وماء البرد ما يصيبه [2] .

وبذلك يكون فعل الأمر " اغسلني " ليس مقصوداً معناه الحقيقي الذي هو غسل الشيء يغسله غسلاً [3] وإنما أطلق تجوزاً على التطهير من الخطايا والمبالغة في إزالتها بالمغفرة والرحمة .

وحكمة العدول عن ذكر الماء الحار إلى الثلج والبرد مع أن الحار في العادة أبلغ إزالة للوسخ إشارة إلى أن الثلج والبرد ماءان طاهران لم تمسهما الأيدي ولم يمتهنهما الاستعمال فكان ذكره آكد في هذا المقام [4] وقيل : هذا أمثال ولم يرد بها أعيان هذه المسميات وإنما أراد بها التوكيد في التطهير من الخطايا والمبالغة في محوها عنه [5] .

وتأمل دقة النبي ﷺ في التعبير ، حيث كان ظاهر السياق يقتضي دخول حرف الجر على ضمير الخطاب ، فيقال : اغسلني منها " ليسبق مرجعه ولكن عدل عن ذلك إلى المظهر لأنه يؤكد الإحساس بمعناه ويملأ النفس بالخوف منه

---

١ - ينظر : التصوير الفني في الحديث النبوي للأديب الدكتور محمد بن لطفي الصباغ ص ٤٠٠ - الطبعة الأولى - المكتب الإسلامي ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

٢ - ينظر : عمدة القاري ١٥ / ٤٦٢ .

٣ - ينظر : لسان العرب ١٠ / ٧ (غسل) .

٤ - ينظر : كتاب السراج المنير شرح الجامع الصغير ١ / ٣٠٤ .

٥ - ينظر : صحيح البخاري بشرح الكرماني ٥ / ١١٢ .

خطورته والفرار بالدعاء من شره في مقام الضراعة والعبادة وبيان حال العبد البشر أمام الرب الجليل المعبود [1].

فضلاً عن أن الرسول ﷺ من دقته المتناهية في اختيار ألفاظه وتراكيبها بدأ ألفاظ المماسة الثلاثة بالماء لأنه أقرب الأنواع الثلاثة إلى النفس البشرية ولكثرة استعماله.

ومن المماسة المعنوية أيضاً ما روى عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالإبل، قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم، قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر

١ - ينظر الحديث النبوي من الوجهة اللاهوتية ص ٣٣١.

عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالخيل، قال: الخيل ثلاثة: هي لرجل وزر، وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخرا ونواء على أهل الإسلام فهي له وزر، وأما التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاستنت شرفا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات، قيل: يا رسول الله فالحمر، قال: ما أنزل علي في الحمر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [1].

ينبه الرسول ﷺ في هذا الحديث على صور العذاب التي سيعذب الذين يبخلون بزكاة أموالهم في دنياهم، فيوم القيامة يعذبون بها، وقد صور الرسول ﷺ هذا العذاب في صور حسية مخيفة مفزعة من الكي المستمر للجنب والجبين والظهر، ومن وطء الإبل بالإخفاف والعض بالأفواه ومن نطح البقر بالقرون

١ - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب: إثم مانع الزكاة ٢/ ١٠٧ - ١٠٨ رقم ٩٨٧

والوطء بالأطلاف ومن تحول الكنز إلى ثعبان مخيف يلتف حول عنق تارك الزكاة ويقضم يده قضم الفحل .

والحديث عبارة عن لوحة فنية متكاملة من العذاب وقد ظهرت فيه المناسبة بصورة واضحة من أوله إلى آخره ، فانظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ وهو يبين جزاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم النقدية فيقول : " ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فاحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره " .

أى إنسان مسلم يخل بزكاة ماله سيصفح له ماله يوم القيامة صفائح من نار ويكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، وهذا العذاب يناسب أصحاب الأموال الذين يخلون بزكاة أموالهم ، فجزاؤهم أن أموالهم تحول إلى صفائح من نار ويعذبون بها .

وقد اختار الرسول ﷺ ألفاظ المناسبة بدقة متناهية فقوله " ما من " يشمل كل مسلم يخل بزكاة ماله ولا يستثنى من هذا العذاب أحد ، فالكل سواسية فى العذاب إلا من شاء ربك نجاته .

وقوله " صفحت له صفائح من نار " الأصل صفحت له صفائح من حديد ، ولكن البلاغة النبوية عدلت عن ذلك إلى قولها " من نار " مبالغة فى شدة العذاب ، وعلى اعتبار ما سيكون أى أن هذه الصفائح من شدة الحمى والإيقاد عليها ستصير ناراً .

ثم تأمل المناسبة المعنوية فى قوله " فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره " فهذه الألفاظ الثلاثة "جنبه " و " جبينه " و " ظهره " بينها تناسباً معنوياً صارت بها الجملة متلاحمة ، شديدة متلائمة الألفاظ ، لأن هذه الألفاظ الثلاثة يناسب بعضها بعضاً وكلها أجزاء من الجسد متجاورة .

والعلة فى تعذيب هذه الأعضاء الثلاثة أن الرجل الغنى عندما يأتيه السائل يطلب منه شيئاً ، يعطيه " جنبه " ، فإذا ما أصر على الطلب ووقف أمامه هز له رأسه بالرفض ، فإذا لم يفهم قصده تركه وتولى وأعطاه ظهره فكان الجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان .

وأكد الرسول ﷺ هذا العذاب وبين شدته ، ليكون زجراً لهؤلاء الذين يبخلون بزكاة أموالهم ، وتنبيهاً لمن يخرج زكاة ماله فقال " كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " نسأل الله السلامة فى هذا اليوم

ولما سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإبل اختار العذاب الذى يناسب تارك زكاتها بدقة متناهية فقال " ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كانت مقداره خمسين ألف سنة " .

فصاحب الإبل الذى يخل بإخراج زكاتها عذابه " بطح لها بقاع قرقر والقاع : المستوى الواسع من الأرض يعلوه ماء السماء فيمسكه ، والقرقر : المستوى أيضاً من الأرض الواسع ، بطح : أى ألقى على وجهه فى أرض واسعة : مستوية ليس فيها مكان عال ومنخفض ليكون ذلك أنكى فى عذابه وأشد فضلاً عن قوله " تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها " فاختار يناسب البعير .

ولما سئل ﷺ عن البقر والغنم اختار العذاب الذى يناسب تارك حقها فقال " ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليها أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة " .

فالرسول ﷺ عندما كان يتحدث عن العذاب الذى ينال صاحب الإبل الذى منع زكاتها أتى بقوله : " تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها " أما هنا وهو

يتحدث عن صاحب البقر والغنم أتى بما يناسبه ليكون العقاب من نفس ماله الذى بخل بإخراج زكاته وفى ذلك أنكى وحسرة وندامة له فتأمل قوله " تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها فالقرون للبقر والغنم والظلف أيضاً للبقر والغنم بخلاف الإبل ، وهذا للزيادة فى عقوبته بكثرتها وقوتها وكمال خلقتها لتكون أثقل فى وطئها كما أن ذوات القرون تكون بقرونها ليكون أنكى وأصوب لطعنها ونطحها .

ومن المناسبة اللفظية التامة ما ورد عن مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنْ أَبِي النَّضْرِ عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى ، فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ ، يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتْ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ "[1] .

الجهاد فى سبيل الله شعار هذا الدين وعز هذه الأمة وحصنها الحصين فما تركت أمة الجهاد فى سبيل الله إلا ذلت وهانت ،ولهذا كان الجهاد فى شريعة الإسلام فريضة لازمة لابد منه لنيل العزة والحفاظ على كرامة الأمة.

ومع أن الجهاد فريضة مقدسة من أجل إعزاز الدين ورفع منارته إلا أن سيدنا رسول الله ﷺ فى هذا الحديث ينهي عن تمني لقاء العدو لما فيه من حصد للرؤوس ، وإتلاف للأموال ، وتشريد للأطفال ، وتخريب للبلاد ، فضلاً عن أن الأصل فى المسلم أن يطلب السلامة والعافية وألا يتعرض للبلاء والفتنة ولكنه

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير - باب : كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ٣ / ٢١٩ - ٢٢٠ رقم ١٧٤٢ .

حينما لا يكون مناص من القتال والحرب فلابد له من الصبر وعدم الفرار من ساحة الشرف ومن ميدان الدفاع والنضال كما أشارت الآية الكريمة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[1] . وإذا لابد من الصبر عند تعانق السيوف والتحام الصفوف وحصد النفوس ولا بد من توطين النفس على تحمل المكاره فإن الجنة لا تنال إلا بالصبر عند الشدائد ، وبتحمل الأذى فى سبيل الله "[2] .

وقد دعا الرسول ﷺ بأن ينصره الله على أعدائه فقال : اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم " فلا بد إذا من الاستعداد ثم اللجوء إلى الله وطلب النصرة منه .

فناسب ﷺ بين " كتاب " "وسحاب " و " أحزاب " مناسبة لفظية تامة فى الوزن والقفية ، وتتجلى البلاغة النبوية فى ترتيب ألفاظ المناسبة حيث بدأت بصيغة الدعاء " اللهم " وهذه الصيغة هي نداء الألوهية التي تملك كل شئ وتسيطر على الوجود كله ، وهذا هو أتم المناسبة لما هم فيه ، فسيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نلجوء إلى الله عند الشدائد والإقرار بأنه قادر على كل شئ من أجل ذلك بدأ المناسبة بهذه الصيغة .

فضلاً عن بدئه بقوله " منزل الكتاب " والكتاب فيه تفصيل كل شئ وفيه أكبر دلالة على وحدانية الله وقدرته : { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }[3] .

أضف إلى ذلك أن الكتاب يناسبه التنزيل والمقصود من الكتاب القرآن ، وقد ذكر المولى سبحانه وتعالى فى مواضع عديدة من قرآنه تنزيله للكتاب

---

١ - الآية ٤٥ من سورة الأنفال

٢ - ينظر : من كنوز السنة للشيخ محمد على الصابوني ص ١٤٤ - دار الفجر ٢٠٠٦م .

٣ - من الآية ٨٢ من سورة النساء .

فقال فى سورة الدخان { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } [1] وقال سبحانه فى سورة القدر : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ }[2].

ثم فى المناسبة بقوله : " مجرى السحاب " أى مسير السحاب من جهة إلى جهة ومن بلد إلى بلد قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}[3] والسحاب يناسبه الجرى

ثم ختم المناسبة بقوله (وهازم الأحزاب) والمراد بهم أئمة الضلال الذين اجتمعوا وتحزبوا لقتال النبى ﷺ وقد اشتهرت تلك الغزوة باسم " غزوة الأحزاب " وقد هزمهم الله ونصر جنده المؤمنين ورفع راية الدين وأزل المشركين ، والأحزاب يناسبهم الهزيمة ، ومما زاد من دقة هذه المناسبة اشتمالها على لون بديعي آخر يسمى بالسجع المرصع الذى أضفى على المناسبة حسناً وجمالاً وجعل لها وقعاً حسناً على السمع وجرساً موسيقياً يأخذ بالألباب .

ومن المناسبة اللفظية غير التامة ما روى عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا »[4].

فى هذا الحديث يبين لنا الرسول ﷺ صورة من صور التعامل فى الإسلام ، وهى صورة التعامل فى البيع والشراء ، فالبائع والمشترى لهم الخيار ما داما فى مجلسهما الذى عقد فيه البيع ، ويجب عليهما الصدق فى بيعهما حتى يبارك لهما فى هذا البيع ، أما إن كذبا وكتما العيوب التى تكون فى سلعتهما ذهبت بركة بيعهما .

---

١ - الآية ٣ من سورة الدخان .
٢ - الآية ١ من سورة القدر .
٣ - من الآية ٤٣ من سورة النور .
٤ - أخرجه مسلم فى كتاب البيوع - باب : الصدق فى البيع والبيان ٣ / ١٨ رقم ١٥٣٢ .

وقد ناسب ﷺ بين قوله " كذبا " وقوله " كتما " مناسبة لفظية غير تامة ، لأن هاتين الكلمتين متفقتان فى الوزن دون القافية .

وقد بدأ الرسول ﷺ ألفاظ المناسبة بـ " إن " التوكيدية ، فضلاً عن استعماله لفظ " كذباً " أى إن تحدثا عن سلعتهما كذباً ، ثم أردف هذا اللفظ بقوله " كتما " وهذا يوحي بأنهما أن تحدثا عن سلعتهما كذبا فى الحديث ، وإما أن يكتما عيوب سلعتهما ، وفى كلا الحالتين فهي من سيدنا رسول الله ﷺ لأنهما إذا فعلا ذلك محقت بركة بيعهما أى لا يبارك الله فى هذا البيع ولا فى ثمن السلعة وإنما يمحقه الله محقاً .

ومن المناسبة اللفظية غير التامة أيضاً ما روى عن ثابت قال : قَالَ أَنَسٌ : عَمِّي الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا قَالَ فَشَقَّ عَلَيْهِ قَالَ أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غِبْتُ عَنْهُ وَإِنْ أَرَانِيَ اللَّهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَانِيَ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، قَالَ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا ، قَالَ : فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ فَقَالَ وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ ، أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ ، قَالَ : فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ ، وَطَعْنَةٍ ، وَرَمْيَةٍ ، قَالَ : فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ : فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا قَالَ فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ »[1].

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة - باب : ثبوت الجنة للشهيد ٣ / ٣٧٣ رقم ١٩٠٣ .

هذا الحديث يحكي لنا قصة رجل صدق مع الله فبلغه الله ما أراد ، حيث لام نفسه عندما تخلف فى غزوة بدر عن رسول الله ﷺ وعاهد الله لأن بلغه مشهداً آخر ، ليبلين الله ما يملك فى سبيل نصرة الإسلام ورفع راية الإيمان ، وقد حدث ذلك بالفعل واشترك مع رسول الله ﷺ فى غزوة أحد ، وأبلى فيها بلاء حسناً واستشهد فى سبيل الله ، ويبين لنا راوي الحديث مدي صدق هذا الصحابي فى الدفاع عن دينه ، فيقول : لا ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية " .

ففى الحديث مناسبة بين " ضربة " و " طعنة " و " ورمية " مناسبة اقتران دون تقفية .

وهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أن الرجل أبلي بلاءً شديداً فى هذه المعركة حتى أصبح فى جسمه بضع وثمانون أثراً ما بين ضربات وطعنات ورميات بالسهام .

وتقديم ضربه على الطعنه ورمية يوحي بأن هذا الرجل تخلل صفوف المشركين والتحم معهم وجهاً لوجه لأن المقصود من الضربة ، الضرب بالسيف وهذا يتحقق عند الالتحام ، أما الرمية فقد تكون من بعد وكذلك الطعنة .

ومما يؤكد بلاء هذا الرجل وكثرة الطعنات والضربات فى جسده قول أخته " كما عرفت أخي إلا ببنانه " ، أى أن معالم جسده غيبت من كثرة الضربات .

فضلاً عن أن هذه الألفاظ الثلاثة توحي بأن هذا الرجل أشترك فى جميع مراحل المعركة من أول المبارزة ثم الطعن ثم الرمي بالنبال وأضف إلى ذلك أن هذه الألفاظ تدل على صلابته وقوته ، حتى أصيب بكل هذه الإصابات ، فهنيئاً له على ما قدم وهنيئاً له على نعمه فى الجنان نسأل الله عز وجل – أن يرزقنا الشهادة فى سبيله أن إلى ذلك القادر عليه .

الوجه الثانى

المؤاخاة

ومن مراعاة النظير ما يسميه البلاغيون " المؤاخاة " وهى داخلة فى معنى المناسبة ، وقد تحدث ابن الأثير عنها فى معرض حلاله عن المناسبة القائمة على المطابقة حيث قال : " ثم يتصل هذا الضرب ضرب من الكلام يسمى المؤاخاة بين المعانى والمؤاخاة بين المبانى وكان ينبغي أن يعقد له باباً مفرداً ، ولكن لما رأيناه ينظر إلى المقابل من وجه وضمناه به "[1]

واعتمادا على ذلك يكون ابن الأثير قسم المؤاخاة إلى قسمين :

– المؤاخاة بين المعانى . – المؤاخاة بين المبانى .

ويقول عن المؤاخاة بين المعانى : هي أن يذكر المعنى مع أمر لا مع الأجنبى منه أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويناسبه بأن تذكره مع ما يبعد منه كان ذلك قد جاء المصاحبة وأنه إذا وقع كان جديراً فمن ذلك قول الكميت :

أمل هل ظعائن بالعلياء رافعة ∴ وأن تكامل فيها الدل والشنب

فإن الدل يذكر مع الفتح وما أشبهه ، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه ، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيراً وهو مظنة الغلط ، لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق ، بحيث توضع المعانى مع أمورها لا مع الأجنبى منها .

والمؤاخاة بين المبانى يقول عنها : أنها تتعلق بمعانى الألفاظ فمن ذلك قول أبي تمام فى وصف الرماح :

مشتقات من الغرب مولدها ∴ الروم زرقها والهند القضبا[2]

---

١ – المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٣ .

٢ – ينظر : الديوان بشرح الخطيب التبريزى ٢ / ٣٧٨ .

وهذا البيت من أبيات أبي تمام الأفراد ، غير أن فيه نظراً وهو قوله : العرب والروم ، ثم قال العاشق لو صح أن يقول العشاق لكان أحسن ، وإذا كانت الأوصاف تجري على نهج واحد كذلك قوله " سمرها وزرقها " ثم قال : القضا وكان ينبغي أن يقول قضبها أو دقها .

وعلى هذا ورد قول مسلم بن الوليد :

نفضت بك الأحلام نفض إقامة ∴ واسترجعت نزاعها الأمصار

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة ∴ يثني عليها السهم والأوعار [1]

والأحسن أن يقال : السهل والوعر أو السهول والأوعار ، ليكون البناء اللفظي واحداً أي أن يكون اللفظات واردين على صيغة الجمع أو الأفراد ولا يكون أحدهما مجموعاً والآخر مفرداً .

وكذلك ورد قول أبي نواس في الخمر :

صفراء تجذبها مراز بها ∴ جلت عن النظراء والمثل [2]

فجمع وأفرد في معنى واحد وهو أنه قال : النظراء مجموعاً ثم قال المثل مفرداً وكان الأحسن أن يقول النظير والمثل أو النظراء والأمثال .

وإذا حاولنا أن نبحث عن نماذج المؤاخاة في البيان العالي للرسول ﷺ وجدناها متحققة بكثرة .

فمن المؤاخاة في المعاني ما ورد " أن أبا هريرة حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " [3] .

---

١ - ينظر : شرح ديوان صريع الغوان لمسلم بن الوليد ص ٣١٣ ، ٣١٤ - ت . د / سامي الدهان - دار المعارف .

٢ - ينظر : الديوان ص ٤١١ - شرح / علي فاعور - دار الكتب العلمية - ط أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

٣ - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب : الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح ١ / ٥٢٤ رقم ٧٦٠ .

في هذا الحديث بين لنا رسول الله ﷺ ثواب من يصوم رمضان إيماناً واحتساباً بأن الله - تبارك وتعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه وثم يقرب ذلك بيان ثواب من يوفقه الله لقيام ليلة القدر . فسأل الغفران من الله عز وجل .

فنلاحظ في هذا الحديث الشريف المؤاخاة بين المعاني حيث ذكر الرسول ﷺ أولاً : قوله : ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " ، أي : من صام رمضان تصديقاً بأنه حق مقتصداً فضيلته ومحتسباً ذلك ، أي : عند الله وحده لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص ، فجزاء من يفعل ذلك غفران ذنوبه .

ثم شفع الرسول ﷺ هذا المعنى ، بمعنى قريب منه ، وملاصق له ولا ينفك عنه وهو قوله " ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " أي من يقوم هذه الليلة ويحييها بقراءة القرآن والاستغفار والتسبيح والصلاة حتى أذان الفجر فان الله يغفر له ما تقدم من ذنبه .

فإن ليلة القدر تذكر مع صيام رمضان لا مع شهر آخر أو صيام آخر من صيام التطوع الذي رغب فيه سيدنا رسول الله ﷺ لأن هذه الليلة في رمضان من أجل ذلك نجد المؤاخاة بين المعاني متحققة في الحديث بصورة واضحة ، فالمعنيان متلاصقان ولا ينفك أحدهما عن الآخر فإذا جاء رمضان يستلزم وجود ليلة القدر فيه إذا جاءت ليلة القدر عرفنا بأن هذا هو شهر رمضان .

ورب قائل يقول : إن بداية الحديث " من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " ويغني عن قوله " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " .

والجواب على ذلك : أن يقال صيام رمضان من غير موافقة ليلة القدر ومعرفتها سبب لغفران الذنوب وقيام ليلة القدر لمن وافقها وعرفها سبب الغفران وأن لم يقم غيرها [1] .

---

١ - ينظر : صحيح مسلم وشرح النووي ٣ / ٢٩٨ .

ومن المؤاخاة بين المعاني أيضا ما روى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ : إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ ، فَقَالَ لَا هُوَ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عِنْدَ ذَلِكَ قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ " [1] .

يبين لنا رسول الله ﷺ في هذا الهدي النبوي الكريم أن كل ما حرم الله الانتفاع به فإنه يحرم بيعه وأكل ثمنه كالخمر والميتة والخنزير والأصنام وقد ورد ذلك صريحا في رواية أخرى : " إن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه " [2] وهذه كلمة عامة جامعة تطرد في كل ما كان المقصود من الانتفاع به حراما وهو قسمان :

أحدهما : ما كان الانتفاع به حاصلا مع بقاء عينه كالأصنام فإن منفعتها المقصودة منها الشرك بالله وهو أعظم المعاصي على الإطلاق ويلتحق بذلك ما كانت منفعته محرمة ككتب الشرك والسحر والبدع والضلال

القسم الثاني : ما لا ينتفع به مع إتلاف عينه فإذا كان المقصود الأعظم منه محرما فإنه يحرم بيعه كما يحرم بيع الخنزير والخمر والميتة مع أن في بعضها منافع غير محرمة كأكل الميتة للمضطر ، ودفع الغصة بالخمر ، وإطفاء الحريق به ، ولكن لما كانت هذه المنافع غير مقصودة لم يعبأ بها وحرم البيع ، ولكن المقصود الأعظم من الخنزير والميتة أكلها ، ومن

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ٣ / ٦٢ رقم ١٥٨١ .

٢ - أخرجه أبو داود في كتاب البيوع باب في ثمن الخمر والميتة ٣ / ٢٨٠ رقم ٣٤٨٨ .

الخمر شربها ، ولم يلتفت إلى ما عدا ذلك ، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى لما قيل له " أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس فقال : لا هو حرام . فقالت طائفة : أراد أن الانتفاع المذكور بشحوم الميتة حرام وحينئذ يكون ذلك تأكيدا للمنع من بيع الميتة حيث لم يجعل شيئا من الانتفاع بها مباحا وقالت طائفة : بل أراد أن بيعها حرام وإن كان قد ينتفع بها لهذه الوجوه لكن المقصود الأعظم من الشحوم هو الأكل ولا يباح بيعها لذلك . [1]

وقد آخى الرسول ﷺ في هذا الحديث بين المعاني ، تأمل قوله " إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام " .

فهناك مؤاخاة بين الخمر والميتة والخنزير والأصنام فكلها نجسة وتتحقق النجاسة بصورة واضحة في الخمر والميتة والخنزير أما الأصنام فهي نجسة نجاسة معنوية ، حتى وإن كان ظاهرها أو لمسها لا يعد نجاسة إلا أنها معنوية لا حسية .

وتلاحظ دقة الرسول ﷺ في ترتيب المؤاخاة على حسب الأكثرية ، حيث بدأ بالأكثر ثم بالأقل منه وهكذا ، فالخمر أكثر المعاني في بيعها وفي كونها ولذلك بدأ بها الرسول ﷺ أو لعل بدأه بها لخطورتها فهي أشدهم في الخطورة لأن من شربها فقد ذهب عقله وفي هذه الحالة نتوقع منه أن يفعل أي شيء يغضب الله سبحانه وتعالى .

ثم ثنى عقد البيع بالميتة لأنها أقل في طلبها من الخمر ثم ثلث بالخنزير لقلة بيعه أيضا ثم ختم عقد البيع بالأصنام لأنها أقلهم وقلت عبادة الأصنام في زماننا هذا عن عصور الجاهلية الأولى التي كانت تتخذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله ، فجاء الإسلام بتعاليمه ونوره وبين للناس بطلان عبادة هذه الأصنام وأن هذا الكون له إله واحد لا شريك له فهو الذي يعبد ويدأت الناس تدخل في

---

١ - ينظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ - دار الدعوة .

دين الله أفواجا وتترك عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل ولا تنفع ولا تضر. وما دامت قلت عبادتها فالفعل يقل بيعها من أجل ذلك نجدها وردت في حرام عقد البيع.

كذلك نجد مؤاخاة أخرى بين المعاني في قوله ﷺ على لسان الرجل الذي سأله " أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس " .

فالطلي قريب من الدهن، والاستصباح ابن عم سابقيه، فالمعاني الثلاثة بينها صلة وثيقة وليس أحدها أجنبيا عن الآخر.

ومن المؤاخاة بين الألفاظ ما روى عَنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ ، وَالْمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى ، وَشَعْبَانَ ثُمَّ قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا : قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ : وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا ،

أَوْ ضُلَّالًا ، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ " (١)

غني عن البيان : أن العرب قد استقر في نفوسهم حرمة مكة وشهر ذي الحجة وحرمة يوم النحر ويريد رسول الله ﷺ أن يقرر لهم أن دماءهم وأموالهم وأعراضهم حرام عليهم فشبهها بحرمة هذه الأمور التي درجوا على تحريمها.

وآخر الحديث دعوة إلى أن يبلغ المرء ما يسمع فرب مبلغ يكون أوعى للكلام منه (٢).

وقد آخى الرسول ﷺ في هذا الحديث بين الألفاظ حينما قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم.

فقد أتى بالألفاظ الثلاثة جمعاً " دماءكم " و" أموالكم " و" اعراضكم " ، وجعلها تجرى على نسق واحد وهو نسق الجمع، وليس فيها جمع ومثنى، أو جمع ومفرد وإنما كلها أتت بصيغة الجمع، لبيان تأكيد غلظ تحريم الدماء والأموال والأعراض والتحذير من المساس بها، فضلا عن أنها من الكليات الخمس التي أمر الشارع بحفظها ومدار حياة الناس عليها.

ونلاحظ أن الرسول ﷺ قد بدأ جملة المؤاخاة بين الألفاظ بـ " إن " التوكيدية تسبقها فاء العطف وكأن الصحابة بعدما قالوا : بلى يا رسول الله، وجد رسول الله ﷺ عقولهم قد تهيأت لقبول ما يلقيه عليهم، فبادر بما يريد أن يقرره في نفوسهم على وجه السرعة، ولذلك استعمل من أدوات العطف " الفاء ".

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب القسامة - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ٣ / ١٦٠ - ١٦١ رقم ١٦٧٩.

٢ - ينظر : التصوير الفني في الحديث ص ١٥٠.

والنكتة البلاغية فى عرض هذه المواجهة هنا مضافاً إلى عنصر المفاجأة " دماءكم وأموالكم وأعراضكم " أن ذلك يعنى أن دم الفرد وماله وعرضه هو دم الجماعة وماله وعرضها وهى مسئولة عن صيانته والحفاظ عليه والدفاع عنه والقتال دونه ويعنى أيضاً أن كل فرد مسئول فى حدود قدراته عن دم غيره وماله وعرضه وهذا تتحقق مسئولية الجماعة عن الفرد ومسئولية الفرد عن الجماعة بصورة لا نظير لها فى أى مجتمع آخر ولذلك نجد الرسول ﷺ قد أعنى بين الألفاظ وأوردها كلها على نسق واحد وهو الجمع [1] وتتمثل دقة النبى ﷺ فى المواجهة بين الألفاظ فى تقديمه الدماء على الأموال والأعراض وهذا يوحى بأن دم الإنسان مقدم على ماله وأنه أغلى منه وأثمن وأن العقوبة على سفك دم غيره أقطع من العقوبة على أخذ مال غيره فالتقديم مبنى هنا على الأهمية .

ولكن هل يقل العرض فى أهميته عن المال حتى يؤخر عنه ؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغى أن ننظر فى جرائم الأعراض والأموال فما الذى نراه ، إننا نلاحظ أن جرائم الأموال فى العادة أكثر من جرائم الأعراض ، ونرى كذلك أن مواطن الشبه فى الأموال التى يجب أن تتقى أكثر من مواطن الشبه فى الأعراض فالحلال والحرام فى الأعراض واضحان وضوحاً بينا بلا أدنى شبهة ، وليس كذلك الأموال لتشابك المعاملات بين الناس وتداخلها فالاقتراب من الحرام والخوض فيه أكثر فى الأموال منه فى الأعراض من أجل ذلك فيما نرى قدم هنا الأموال على الأعراض ، وإن كان قد ساوى بين الثلاثة فى حرمتها هذه الحرمة المغلظة [2] .

---

١ - ينظر : من أسرار البيان النبوى د / أحمد محمد على ص ٨٢ - الطبعة الأولى - دار الصحوة - ١٤٠٦ - ١٩٨٥ م .

٢ - ينظر : من أسرار البيان النبوى ص ٨٢ ، ٨٣ .

أضف إلى ذلك أننا إذا نظرنا فى جميع المصائب التى تحدث فى زماننا هذا نجد أن سببها الأموال ، فالأموال هى رأس الفتنة فى الأحوال كلها ، فقد يقتل الإنسان أخاه من أجل المال ، وقد يتهم الإنسان أخاه المسلم فى عرضه بسبب أن سلبه بعض حقوقه المالية ، فلعل ذلك يسهم بشئ فى الإجابة على سؤالنا لماذا قدمت الأموال على الأعراض ؟

كذلك نجد مواجهة بين الألفاظ فى قوله ﷺ " كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا " حيث جاءت الألفاظ كلها مفردة ولعل السر فى ذلك أن الرسول ﷺ يقصد يوما واحداً وهو يوم النحر ولم يقصد الأيام كلها لذلك جاء مفرداً ليطابق ما يقصده رسول الله ﷺ ، كذلك يقصد شهراً واحداً وهو شهر ذى الحجة ولم يقصد الشهور كلها ولذلك جاء مفرداً ، كذلك يقصد بلداً واحدة وهى مكة ، ولم يقصد عدداً من بلدان المسلمين وبذلك يتبين لنا كم كان الرسول ﷺ دقيقاً فى اختيار ألفاظ المواجهة حيث أتى بها فى المرة الأولى جمعاً وبينا السر فى ذلك وفى المرة الثانية أتى بها مفردة لتناسب ما يقصده سيدنا رسول الله ﷺ .

والسر فى تخصيص حرمة الشهر واليوم والبلدة أن هذه الأشياء الثلاثة حرمتها مقررة عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، وانتهاك هذه الحرمات يعد جريمة الجرائم عند الجميع ، والمجتمع هناك مسئول عن صيانة هذه الحرمات وعدم انتهاكها أو المساس بها .

ومما زاد من دقة هذه المواجهة ورودها فى صورة تشبيهية تمثيلية " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا فى شهركم هذا " ، حيث شبه الرسول ﷺ حرمة الدماء والأموال والأعراض بحرمة يوم النحر داخله فى حرمة البلد الحرام داخلة فى حرمة الشهر

الحرام . وبذلك يتبين لنا أن المشبه به هو الحرمات الثلاث متداخلة فى بعض لذلك نجد بـ " فى " الدالة على الظرفية فى المشبه به .

ومن المؤاخاة بين الألفاظ أيضاً ما روى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ ... [1].

فى هذا الحديث ينهانا الرسول ﷺ عن بغض وحسد بعضهم بعضا ، ويأمرنا بأن نكون إخوة متحابين تسود بينا روح المودة والألفة والمحبة وهو بهذا يريد أن يقيم مجتمعاً إسلامياً له حرمته ، حتى يتسنى لهذا المجتمع أن يكون قوة قادرة على مواجهة الأعداء وكبح جماحهم .

وقد آخى الرسول ﷺ بين الألفاظ فقال " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا " .

حيث أورد الألفاظ كلها على نهج واحد ونسق متحد وهو الجمع ، ولعل السر فى ذلك لأنه يخاطب الأمة جمعاء كبيرها وصغيرها أبيضها وأسودها فكان من المناسب هذا المقام أن تأتى الألفاظ بصيغة الجمع لتؤدى الغرض المنشود منها وتحقق الهدف المرجو من ورائها وتنزع من كل مسلم يسمع هذا الحديث البغض والحسد والكراهية التى يحملها لأخيه حتى يكون الحب والسلام والتعاون والوئام هو الأصل فى مجتمعنا الإسلامى وأن يكون الخلاف والنزاع هو الاستثناء الذى يجب أن يعالج وأن يرد إلى الأصل فور وقوعه .

وقد بدأ الرسول ﷺ هذه المؤاخاة بقوله " ولا تباغضوا " حيث نهى المسلمين عن التباغض بينهم فى غير الله تعالى بل على أهواء النفوس لأن

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر ٤ / ٢٨٨ رقم ٢٥٥٩ .

المسلمين جعلهم الله إخوة ، والإخوة جدير بهم أن يتحابوا ولا يتباغضوا ، وقد قال النبى ﷺ فى حديث آخر " والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم " [1].

فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى حرم على المؤمنين ما يوقع بينهم العداوة والبغضاء كما قال فى محكم تنزيله : { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } [2] وامتن على عباده بالتآلف بين قلوبكم فقال " وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } [3] من أجل ذلك نجد الرسول ﷺ قد بدأ المؤاخاة بالنهى عن التباغض لما له من الأهمية .

ولا تنسى أن هناك بغضاً فى الله فهو من أوثق عرى الإيمان وليس داخلا فى النهى ، ولو ظهر لرجل من أخيه فأبغضه عليه وكان الرجل معذوراً فيه فى نفس الأمر أثيب المبغض له وإن عذر أخوه كما قال عمر : إنا كنا نعرفكم إذ رسول الله ﷺ بين أظهرنا وإذ ينزل الوحى وإذ ينبئنا الله من أخباركم ألا وإن رسول الله ﷺ قد انطلق به وانقطع الوحى وإنما نعرفكم بما نخبركم ألا من أظهر منكم لنا خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه ومن أظهر منكم شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه ، سرائركم بينكم وبين ربكم تعالى .

---

١ - أخرجه مسلم أبو داوود فى كتاب الأدب - باب فى إفشاء السلام ٤ / ٣٥٠ رقم ٥١٩٣ - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية .

٢ - الآية ٩١ من سورة المائدة .

٣ - من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

ولما كثر اختلاف الناس فى مسائل الدين وكثر تفرقهم كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم وكل منهم يظهر أنه يبغض لله وقد يكون فى نفس الأمر معذوراً وقد لا يكون معذورا بل يكون متبعاً لهواه مقصراً فى البحث عن معرفة ما يبغض عليه فإن كثيراً من البغض كذلك إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق وهذا الظن خطأ قطعاً وإن أريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه فهذا الظن قد يخطئ ويصيب وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى والألفة أو العادة ، وكل هذا يقدح فى أن يكون هذا البغض لله ، قالوا ليس على المؤمن أن ينصح لنفسه ويتحرز فى هذا غاية التحرز وما أشكل منه فلا يدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما فى عنه من البغض المحرم [1] .

ثم نهى المؤاخاة بقوله " ولا تحاسدوا " يعنى ولا يحسد بعضكم بعضاً ، وأتى الحسد فى المرتبة الثانية بعد التباغض ، لأنه قد ينشأ عن التباغض ويرتكز عليه فإنك عندما تبغض إنساناً تتمنى له كل مكروه .

أضف إلى ذلك أن الحسد مركوز فى طباع البشر وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه فى شئ من الفضائل ، ثم ينقسم الناس بعد هذا إلى أقسام : فمنهم من يسعى فى زوال نعمة المحسود بالبغى عليه بالقول والفعل ثم منهم من يسعى فى نقل ذلك إلى نفسه ومنهم من يسعى فى إزالة نعمته عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه وهو شرهما وأخبثهما ، وهذا هو الحسد المذموم المنهى عنه وهو كان ذنب إبليس حيث كان حسد آدم - عليه السلام - لما رآه قد فاق على الملائكة بأن الله خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ وأسكنه فى جواره فمازال يسعى فى إخراجه من الجنة حتى أخرج منها [2] .

١- ينظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

٢ - ينظر : جامع العلوم والحكم ص ٢٨٩ .

ثم أتى فى المرتبة الثالثة بقوله " ولا تدابروا " والتدابر : هو المعاداة ، وقيل : المقاطعة لأن كل واحد يولى صاحبه دبره [1] .

وكل هذا فى التقاطع للأمور الدنيوية فأما لأجل الدين فتجوز الزيادة على ثلاثة أيام ، نص على ذلك الإمام أحمد واستدل على ذلك بقصة الثلاثة الذين خلفوا ، وأمر النبى ﷺ بهجرانهم لما خاف منهم النفاق وأباح هجران ، أهل البدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء [2] .

ثم ختم الرسول ﷺ المؤاخاة بقوله " وكونوا عباد الله إخوانا " أى تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة ومعاشرتهم فى المودة والرفق والشفقة والملاطفة ونحو ذلك مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال .

وسبب ختم الرسول ﷺ المؤاخاة بقوله " وكونوا عباد الله إخوانا " لأنها تعليل لما تقدم وفيها إشارة إلى أننا إذا تركنا التباغض والتحاسد والتدابر سنصير إخوة متحابين وتسود بيننا المودة والألفة .

ومن الجدير بالذكر : أن المؤاخاة بين الألفاظ فى هذا الحديث قد أحدثت صورة موسيقية متغيرة الإيقاع بحسب المضمون ، وقد أدت الحروف المتجاورة دوراً بارعاً فى الصورة ، كذلك أدى التوازن والتقطيع الصوتى دوراً بديعاً ، والانسجام فى أصوات الحروف وإيقاعها بلغ فى الكلمة الحديثة درجة تقرب من الإعجاز .

ولو ذهبنا نبحث عن كلمة تنافر حروفها فى الحديث لما استطعنا أن نجد شيئاً منها بل إن كلمات الحديث تتمتع بجرس موسيقى رائع تنساب حروفها على اللسان انسياباً وتتحد مع مضمونها فى إطار تصويرى بديع [3] .

---

١ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٨ / ٢٥٨ .

٢ - ينظر : جامع العلوم والحكم ص ٢٨٩ .

٣ - ينظر : التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص ٢٢٨ .

ومن المؤاخاة بين الألفاظ أيضاً ما روى عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ ، فَقَالَ : تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلا تَزْنُوا ، وَلا تَسْرِقُوا ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ "(١).

يقول الإمام النووى عن هذا الحديث : اعلم أن هذا الحديث عام مخصوص وموضع التخصيص قوله ﷺ " ومن أصاب شيئا من ذلك إلى آخره " المراد به : ما سوى الإشراك وإلا فالشرك لا يغفر له وتكون عقوبته كفارة له (٢).

يطلب الرسول ﷺ من أصحابه فى هذا الحديث المبايعة على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يزنوا ولا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق فمن وفى بذلك فأجره على الله ومن أصاب ذنبا فأقيم عليه الحد فهو كفارة له ومن أصاب ذنبا فستره الله فأمره مفوض إلى مولاه إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } (٣).

وقد آخى الرسول ﷺ بين الألفاظ حيث أوردها جميعا بصيغة الجمع فتأمل قوله من بداية الحديث " تبايعونى " فعل مضارع مقترن بواو الجماعة ، طلب منهم المبايعة جميعا على " أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس ... " كل ذلك جاء بصيغة الجمع .

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب الحدود باب الحدود كفارات لأهلها ٣ / ١٨٩ - ١٩٠ - رقم ١٧٠٩ .

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٦ / ٢٤٠ .

٣ - من الآية ٤٠ من سورة المائدة .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ قد بدأ المبايعة بعدم الإشراك بالله ، لأن عدم الإشراك بالله هو أساس قبول الأعمال فضلاً عن أن كل ذنب يغفره الله إلا الإشراك به " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً " (١)

ثم جعل المبايعة على عدم الزنا فى المرتبة الثانية ؛ لأن الزنا له أضرار خطيرة لأنه يؤدى إلى اختلاط الأنساب وإلى انتهاك حرمات الله ويظل وصمة عار على جبين الإنسان مدى الحياة ، فهو جريمة لا يستهان بها .

وأخر الرسول ﷺ قتل النفس لأن تلك جريمة لا يقدم عليها الإنسان إلا بعد دوافع شيطانية جسيمة تذهب عقل القاتل وتجعله فى غير وعيه عند ارتكابه لهذه الجريمة البشعة من أجل ذلك أخرت فى ترتيب المؤاخاة لأنها قليلة الوقوع .

وجعل الإسراف متوسطاً بين المؤاخاة ، لا فى أولها ولا فى آخرها ، لأن الإسراف عواقبه ترجع على صاحبه لا على أحد آخر ، فالذي يسرف ويضيع ماله فهو الذى يصاب بالفقر لا أحد غيره ، أما فى الإشراك بالله يكون قد عصي الله سبحانه وتعالى - وكذلك الزنا أضراره بالآخرين والقتل كذلك أضراره بالآخرين أما الإسراف أضراره أغلبها على صاحبه ولذلك أتى متوسطاً بين ألفاظ المؤاخاة .

---

١ - الآية ١١٦ من سورة النساء .

الوجه الثالث

الائتلاف

وقد عرفه السيوطي في كتابه الإتقان بقوله " هو ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى " وبناءً على ذلك جعله على قسمين :

الأول : أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله ، ورعاية حسن الجوار والمناسبة .

الثاني : أن تكون ألفاظ الكلام ملازمة للمعنى المراد ، فإن فخما كانت ألفاظه فخمة أو جزلا فجزلة أو غريباً فغريبة أو متداولاً فمتداولة ، أو متوسطا بين الغرابة والاستعمال فكذلك .

فالأول : كقوله تعالى: {تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً} [1] أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء فإنها أقل استعمالاً وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهي " تفتأ " فإن " تزال " أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً منها ، وبأغرب ألفاظ الملاك وهو الحرض ، فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة نوعا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم ، ولما أراد غير ذلك قال : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ }[2] فأتى بجميع الألفاظ متداوله لا غرابة فيها .

ومن الثاني : قوله تعالى : { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [3] لما كان الركون إلى الظالم هو الميل إليه والاعتماد عليه دون

---

١ - من الآية ٨٥ من سورة يوسف .
٢ - من الآية ٣٨ من سورة النحل .
٣ - سورة هود الآية ١١٣ .

مشاركته في الظلم وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم ، فأتى بلفظ المس الذي هو دون الإحراق والاصطلاء [1] .

وقد تكلم أيضا ابن أبي الإصبع عن النوع الثاني وهو ائتلاف اللفظ مع المعنى وقال عنه : أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى ومثال ذلك قوله سبحانه : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ } [2] فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه ، منها قوله تعالى : { إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ } [3] وعدل عز وجل – وهو – أعلم عن ذكر الطين الذي هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب لأنه أدنى العنصرين وأكثفهما لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الألوهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك ، فلهذا كان الإتيان بلفظة التراب أمثل بالمعنى من غيرها من العناصر ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود ، ولما أراد سبحانه وتعالى الامتنان على بني إسرائيل بعيسى – عليه السلام – أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه إذا كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به [4] .

وكذلك نجد الحاشي تحدث عن ائتلاف اللفظ مع المعنى وقال عنه : أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني ، فتختار الألفاظ الجزلة والعبارات الشديدة للفخر والحماسة ، وتختار الكلمات الرقيقة والعبارات اللينة للغزل والمدح ، كقوله :

---

١ - ينظر : الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١١٣ – دار عالم المعرفة .
٢ - من الآية ٥٩ من سورة آل عمران .
٣ - من الآية ٧١ من سورة ص .
٤ - ينظر : تحرير التحبير ص ١٩٤ – ١٩٥ .

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة
ذرا منبر صلى عليها وسلما [1]

وكقوله :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

وكقوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ∴ ونفى عن الكرى طيف ألم [2]

ومن الخلاف اللفظ مع المعنى ما روى " حَدَّثَنِي مَعْبَدُ بْنُ خَالِدٍ أَنَّهُ سَمِعَ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ ﷺ : كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ " [3] .

فى هذا الحديث يخبر الرسول ﷺ عن أوصاف أهل الجنة ، فهم الضعفاء المتواضعون ، وضعفهم تواضع لا وهن فى النفس أو الجسم ويرون أنفسهم ضعافاً وإن كانوا فى ذاتهم أقوياء ولو أقسموا على الله لأبرهم .

---

١ - البيتان لبشار بن برد من قصيدة مطلعها :

يطوف العفاة بأبوابه ∴ كطوف الحجيج بيت الحرم .

٢ - البيتان لبشار بن برد . ينظر : جواهر البلاغة ص ٣٠٩ - دار ابن خلدون .

٣ - أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤ / ٤٩٦ رقم ٢٨٥٣ .

وفى الجانب الآخر يخبر عن أوصاف أهل النار وهم الشداد الخصومة ، الذين يختالون فى مشيتهم ويتكبرون على خلق الله ، نعوذ بالله منهم ومن أوصافهم .

أتى الرسول ﷺ فى أهل الجنة بألفاظ سهلة رقيقة " كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره " والمراد بالضعيف : المتواضع ، فضعفه تواضع لا وهن فى النفس أو الجسم ، حتى لا يتعارض مع الحديث الآخر الذى يخبر فيه الرسول ﷺ بأن " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير " .

فيجب حمل الضعيف المتضعف فى حديثنا محل الشاهد على المتواضع الذى يخفض جناحه للناس ولا يتكبر عليهم ، وهذا لا يكون إلا مع القوة ، لأن حقيقة التواضع إلانة الجانب للناس ، فلابد أن تكون هناك قوة تلان ، وهذا لا يكون هناك خلاف بين الحديثين ويكون الممدوح فى الإسلام هو القوة مع التواضع ولا تكون القوة فيه ممدوحة وحدها على الإطلاق .

وهذا هو مسلك الاعتدال فى شأن القوة والضعف ؛ لأن مدح القوة على الإطلاق يقتضى ذم الضعف على الإطلاق وهذا مذهب من يحارب الضعف إلى حد إباحة قتل الضعفاء لتخلص الدنيا للأقوياء ، وحدهم ، كما كان يفعله قديماً بعض طوائف اليونان وهذا شئ لا ترتضيه شريعة الإسلام السمحاء [1] .

كذلك من أوصاف أهل الجنة " لو أقسم على الله لأبره " أى لو حلف يميناً طمعاً فى كرم الله تعالى بإبراره ، وقيل معناه : لو دعاه لأجاب ، يقال : أبررت قسمه بررته [2] .

---

١ - ينظر : أحاديث نبوية شريفة - د / محمود قرع العلمة ص ٧٠ - دار الطباعة المحمدية

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٩ / ٢٠٧ .

وأتى فى أهل النار بألفاظ فجاءت شديدة وهذا من ملاءمة اللفظ للمعنى يتأمل قوله " كل عتل جواظ مستكبر " .

والعتل : هو الجافى الغليظ .

والجواظ : هو الكثير اللحم المختال فى مشيه أو الأكول الفاجر .

والمستكبر : هو صاحب الكبر الذى يبطر الحق ويغمط الناس .

وإنما استحق العتل الجواظ المستكبر أن يكون من أهل النار لما فيه من هذه الخصال الرديئة وإذا دل بعضها على بعض الصفات الخسيسة من عظم الشر والحمق ونحوه . فوجد رذائله يستتبع رذائل الأخلاق غالباً . لأنه لا يصل إلى هذه الصفات الخسيسة إلا إذا كان مسرفا فى شهواته منهمكاً فى معاصيه .

ولاشك أن فى مقابله العتل الجواظ المستكبر للضعيف المتضعف دليلاً أيضاً على أن المراد بالضعيف المتضعف خلاف العتل الجواظ المستكبر ، لا الضعيف حقيقة فى جسمه أو نفسه [1] .

بذلك يكون الرسول ﷺ قد لاءم بين المعانى والألفاظ ، فلكل معنى ألفاظ تخصه وعبارات تكشفه وهذا هو ما ظهر لنا من حديث رسول الله ﷺ الذى أخبرنا فيه بأوصاف أهل الجنة وأوصاف أهل النار فأهل الجنة رقاق القلوب ،سهل الطباع ولذلك أتى بألفاظ تناسب رقتهم ولين طباعهم ، وأهل النار متكبرون وغلاظ الطباع فأتى بألفاظ تلائم مع كبرهم وتكشف فوقهم ، ومما زاد من هذه الملاءمة ، كلمة " ألا " التى ابتدأ بها الرسول ﷺ الحديث ، فهى أداة عرض وتنبيه تدل على تحقق ما بعدها ، فضلاً عما اشتمل عليه الحديث من الإيضاح بعد الإبهام " ألا أخبركم بأهل الجنة " فهذا إبهام وإجمال يدعو كل مستمع أن يصغى سمعه ويناسب لمتابعة التفصيل والإيضاح " قالوا : بلى : قال ﷺ " كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره " وهذا يتمكن المعنى فى ذهن

---

١ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٩ / ٧١ .

المخاطب ، لأن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وهذا ما أشار إليه الخطيب القزوينى [1] .

ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى ما روى أيضا عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " [2] .

فى هذا الحديث الشريف يضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة فى تطبيق مبدأ العدالة والمساواة دون تفريق وتمييز بين قوى وضعيف وكبير وصغير وشريف ووضيع ، فالكل فى نظر الإسلام سواء ، لا يراعى الغنى لغناه ، ولا يحابى الشريف لشرفه ، فالناس فى ميزان الدين سواسية كأسنان المشط ، وهكذا يأتى الرسول ﷺ على قواعد الجاهلية فيدكها من أساسها ويقتلعها من جذورها ويقرر مبدأ العدل والمساواة بين طبقات الأمة الواحدة فعندما كلمه أسامة فى شأن المرأة المخزومية التى سرقت ويخشى عليها قومها أن يصل أمرها إلى الرسول ﷺ فيقيم عليها الحد ويقطع يدها ، وتكون وصمة عار عليهم لأنهم من الأشراف فيغضب الرسول ﷺ لهذه الشفاعة ويقول كلمته الذهبية " ، وأيم الله

---

١ - ينظر : الإيضاح ٣ / ١٩٦ .

٢ - أخرجه مسلم فى كتاب الحدود - باب : قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود ٣ / ١٧١ رقم ١٦٨٨ .

لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " وحاشا للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله التي تربت في بيت النبوة أن تسرق أو أن يقع منها ما يوجب عليها الحد ولكنه مثل يضربه الرسول الكريم حتى يبقى مثالاً خالداً على كر الدهور ومر العصور في أن رسالة الإسلام ودعوة محمد ﷺ إنما هي دعوة العدل ودعوة المساواة لا محاباة فيها ولا مداراة وهذا هو المثل الأعلى والنموذج الكامل لعدالة الإسلام التي ينبغي أن تبنى عليها النظم وتساس عليها الأمم لأنها شريعة الله الذي وصف نفسه بالعدل .

وأتى سيدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث بالألفاظ التي تناسب المعنى الذي عرض عليه ، فالمعنى الذي عرضه عليه أسامة كان معنى غريباً وشاقاً على نفس رسول الله ﷺ كيف يا أسامة تشفع في حد من حدود الله ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن غضب وأظهر الغضب في وجه أسامة وثارت نفسه لحرمة على حدود الله وقال " أتشفع في حد من حدود الله " بدأ كلامه مع أسامة بالاستفهام الإنكاري ، لأنه تنكر على أسامة الشفاعة في الحدود التي فرضها الله وبتعظيم فعله هذا ، ثم يقف خطيباً في الناس ويبين لهم أن هلاك الأمم السابقة إنما كان بسبب عدم تطبيقها حدود الله فيقول " أيها الناس : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد " فلاحظ في هذه الألفاظ نبرة الغضب والشدة لتناسب المعنى الذي عرضه أسامة على رسول الله ﷺ كيف تريدون أن تشفعوا لهذه المرأة وأنتم تعلمون أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب عدم تطبيقهم حدود الله على جميع الناس فجاء الإسلام بعدالته وشريعته السمحاء فأزال هذه الفوارق ومحى هذه المبادئ الجائرة وأقام الناس جميعاً على قانون واحد ونظام عادل يشمل العظيم والحقير ويجمع بين السادة والعبيد { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }[1] .

---

١ - من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وربا لها من آية لو توقفنا عندها وأطلنا فيها النظر لنزعت كل شيء من قلوبنا من كبر وبغض وحسد وكراهية .

وما زال سيدنا رسول الله ﷺ يلائم بين الألفاظ والمعاني تأمل قوله : " وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " أتى بقسم قليل الاستعمال نسبيا " أيم الله " فهو أقل في الاستعمال من القسم بلفظ الجلالة " الله " ليناسب ما طرحه عليه أسامة من معنى فيه غرابة وفيه قلة وقليل من يطلبه من رسول الله ﷺ لأنهم يعلمون جيداً أن رسول الله ﷺ يطبق شرع الله على عباده ، وحاشاه أن يجامل أحداً في شريعة الله أو يغض الطرف عندما يشاهد حرمات الله تنتهك ولذلك اختاروا إنساناً محبا إلى رسول الله ﷺ ليكلمه في هذا الأمر : " ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ " .

أضف إلى ذلك أن القسم جاء بلفظ الجمع " وأيم الله " لأن أصل " أيم الله " " أيمن الله " جمع يمين حذفت النون منه فصار " أيم الله " فمجيئه بلفظ الجمع ليناسب قوله " أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت " وكأن قريشاً كلها تقف على قدم وساق يسري فيها الهم والقلق لأن هذه المرأة كانت من الأشراف فكيف تقطع يدها وتجلب لأهلها العار والخزي فجاء بالقسم جمعاً " وأيم الله " ليناسب همهم هذا وشغلهم بهذه المرأة ، وكأن رسول الله ﷺ يقسم لهم بجميع الأيمان ويا ترى على أي شيء يقسم " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " فلعل فلذة كبد الإنسان وابنته المحببة إليه أقرب إليه من نفسه والعادة قد جرت على سيطرة العواطف على الإنسان في تصرفاته ولو في الحدود إيثار لفتاته ، وإذا كان ذلك الإنسان مثلا يحتذى في العدالة وصيانة القانون فإنه لابد واجد من الأسباب المخففة ما يمنع تصور مثل هذه العقوبة الرهيبة أن تحل بابنته ، أما أن ينسيه أمر ربه عواطفه وحنانه وصلاته الوثقى وتقاليد مجتمعه فلا يبالي ولا يجامل ولا يغير في العقاب فذلك لا يكون إلا لمستوى الرسل وفي طليعتهم محمد صلوات الله عليه وسلم وهو هذا يقطع عليهم كل أمل في قبول شفاعتهم .

فضلاً عن التوكيد الذى اشتملت عليه هذه الجملة " لو أن فاطمة " جاء الكلام مؤكداً لإزالة ما يتعلق بقلوبهم من قبول الشفاعة ، أضف إلى ذلك قوله " فاطمة بنت محمد " كان يكتفى بقوله " فاطمة " ولكن ذكر " بنت محمد " إيضاحاً وتنبيهاً للأمر ، وتأمل قوله " لقطعت يدها " أى ألمت عليها الحد بنفسى ولا آمر أحداً غيرى أن يقيم عليها الحد حتى لا تشوا أنى أحابى فى رأفة فى دين الله وقد أكد هذا الأمر بلام التوكيد فى قوله " لقطعت " كذلك تجلى بلاغته صلى الله ﷺ فى التعبير بقوله " لقطعت " ولم يقل لألمت عليها الحد " ربما يظن البعض أنه تحايل فى أمر الله وخفف عنها العقوبة وأقام عليها حداً دون القطع ، ولكن نصه على القطع كان من بلاغته ﷺ .

ومن التلاؤم اللفظ مع المعنى ما روى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ "[1] .

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم تذكرة للنفوس الخائرة وإنقاذ للقلوب الجامدة اليائسة التى لا تفهم إلا لذائذ الحياة وشهواتها الدنيئة وإخراج للناس من الظلمات إلى النور ولذلك نجد رسول الله ﷺ فى هذا الحديث يرغبنا جميعاً فى الإكثار من تلاوته سواء من يجيد القراءة منا أو من يتعتع فى قراءته فلكل أجره وجزاؤه من الله سبحانه وتعالى .

وبذلك يبين لنا بأن قارئ القرآن أحد أمرين :

١ - إما أن يجيد القراءة . ٢ - وإما أن يقرأ بمشقة .

فاختار للصنف الأول الذى يجيد القراءة ويتقنها ألفاظاً تتسلف مع الإجادة وتعبر عنها بوضوح فقال " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافر وقصرها - باب : فضل الماهر بالقرآن والذى يتعتع فيه ١ / ٥٤١ رقم ٧٩٨ .

والسفرة : جمع سافر ، والسافر الرسول " والسفرة هم الرسل ؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله ، وقيل : السفرة الكتب والبررة المطيعون من البر وهو الطاعة "[1] .

أى الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقف ولا يشق عليه القرآن بجودة حفظه وإتقانه سيكون مع الرسل الكرام البررة .

ومعنى كونه مع الملائكة أى سيكون له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة لا تضاهه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى .

ومن يتأمل هذه الألفاظ التى اختارها الرسول ﷺ لمتقن القرآن ومجيده يجد فيها السهولة والسلاسة والعذوبة "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة " وكأن الألفاظ تعبر عن حاله أثناء قراءته القرآن فإنه يقرأ القرآن بسهولة وبدون مشقة فجاءت الألفاظ لتعبر عنه وتصوره فى أحسن صورة ولقد كان للرسول ﷺ المقدرة الفائقة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقى العذب بحيث يتوافر لكل كلمة منها أمران كان لهما أهمية كبرى فى إعطاء الكلمة موسيقاها وهما :

١ - التعاطف بين المعنى واللفظ . ٢ - الانسجام فى إيقاع الحروف .

أما التعاطف بين المعنى واللفظ فهو واضح فى الكلمات التى اختارها الرسول ﷺ ليعبر بها عن الحاذق فى قراءة القرآن ، وموسيقى هذه الكلمات ساعدت على تصوير المعنى وتقريبه .

وكذلك تلاحظ انسجاماً فى حروف كل كلمة ، فالحروف تنساب على اللسان انسياباً وتتحد مع مضمونها فى إطار تصويرى بديع .

---

١ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٩ / ٥٧١ .

وفى الجانب الآخر عندما أراد الرسول ﷺ أن يخبر عن الأجر الذى ينال قارئ القرآن بمشقة وصعوبة فقال " والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران " .

والتتعتعة هى : تردده فى تلاوته لضعف حفظه وقلة إجادته للقرآن ، ولذلك قلله أجران . أجر القراءة ، وأجر بتتعتعه فى تلاوته ومشقته .

ولكن ليس معناه أن الذى يتتعتع فى القرآن له من الأجر أكثر من الماهر به بل الماهر أفضل وأكثر أجراً ، لأنه مع السفرة وله أجور كثيرة ولم يذكر هذه المنزلة لغيره ، وكيف يلحق به من لم يعان بكتاب الله تعالى وحفظه واتقانه وكثرة تلاوته وروايته كاختصاله حتى مهر فيه [1] .

وقد اختار الرسول ﷺ الألفاظ التى تعبر عن المعنى الذى يريد توصيله للسامعين أدق تعبير " الذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق " فلفظ التتعتعة يرسم لنا صورة فكى القارئ وهو يتردد فى تلاوته ويعانى من قراءته ، وهو عليه شاق " لضعف حفظه وقلة ممارسته للقرآن فكل هذه الألفاظ جاءت متوافقة مع المعنى الذى أراده الرسول ﷺ حتى أنك تجد صعوبة فى النطق بكلمة " يتتعتع " وبذلك يكون تكوين الكلمة وصياغتها تعطى جواً من تصور المشقة التى استلزمت أن يكون له أجران .

ومن التلاؤم اللفظ مع اللفظ ما روى أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ حَكَمًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ [2] .

---

١ - انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٦ / ٣٥٤ .

٢ - أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان - باب : نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ١ / ١٤٣ رقم ١٥٥ .

يصور لنا الحديث الواقع الذى سيكون أيام نزول عيسى - عليه السلام - مما يدل على أن ما عليه النصارى الآن باطل لا يرضاه المسيح الذى ينتسبون إليه بل أنه سوف يكسر الصليب وهم يقدسونه ، ويقتل الخنزير وهم يحبونه ويضع الجزية عليهم وهم يأبونها ويذكر الرسول ﷺ أن الرخاء سيعم وأنه يدعى إلى المال فلا يرضى أحد أن يأخذه .

فنلاحظ فى هذا الحديث التلاؤم الألفاظ بعضها مع بعض ، حيث بدأ الرسول ﷺ حديثه بصيغة القسم " والذى نفسى بيده وهذه الصيغة قليلة الاستعمال وغريبة علينا الآن ، وقليل من يحلف بهذه الصيغة لأن هذه الصيغة كان يقسم بها الرسول ﷺ فى الأمور المهمة ، وهى أقل استعمالاً من لفظ الجلالة " الله " .

وكان يستعمل ﷺ القسم ، ليهيئ به نفس المخاطب حتى يتأكد لديه الخبر ويثبت ويقر فى وجدانه ، ولذلك كان القسم يتقدم الأمور المهمة التى يحرص الرسول ﷺ على تأكيدها وتثبيتها فى وجدان المخاطبين ، لأن القسم يلفت السامع ويشد انتباهه فيصبح فى شوق إلى الإحاطة بالجواب وإدراك المعنى الذى أقسم ﷺ من أجله .

فالمعنى الذى يقصد ﷺ تثبيته وترسيخه فى وجدان الأمة فى هذا الحديث الشريف أن ما عليه النصارى الآن باطل لا يرضاه المسيح الذى ينتسبون إليه ولذلك القسم أدى دوراً مهماً فى هذا الشأن وقد آثر ﷺ اختيار هذه الصيغة " والذى نفسى بيده " تنبيها على ما فى الافتراء على الله تعالى من المخاطرة بالنفس وكأنه ﷺ قال : كيف أجرؤ أن أقول على الله تعالى ما ليس لى بحق ونفسى بيده وهو القادر على أن ينتقم من الكاذب ، وهذا معنى قوله

عز وجل : { ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين }[1].

ولما بدأ الرسول ﷺ حديثه بصيغة القسم النادرة أو قليلة الاستعمال أردفها بفعل " ليوشكن " وهو قليل الاستعمال من بين الأفعال التي ترفع المبتدأ وتنصب الخبر ، ثم وصف ابن مريم بأوصاف تناسب مع ما قبلها من ألفاظ " حكماً مقسطاً " فلفظ المقسط أقل في الاستعمال من لفظ العادل .

ويتأكد لدينا ما سبق أن ما قررناه من تلاف الألفاظ بعضها مع بعض في قلة الاستعمال ، إذا عرضنا رواية أخرى للحديث رواها أيضاً الإمام مسلم حيث يقول ﷺ فيها " والله ليزلن ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخزير وليضعن الجزية "[2].

هذه الرواية بدأها الرسول ﷺ بصيغة القسم " والله " وهذه الصيغة كثيرة الاستعمال لدينا ومألوفة عند الجميع ، ولذلك أعقبها بفعل يتناسب مع كثرة استعمالها وهو قوله " ليزلن " والنزول قريب ولفظ متداول عند الجميع بخلاف الفعل " ليوشكن " .

كذلك وصف ابن مريم بأوصاف تتناسب مع ما قبلها من حيث كثرة الاستعمال عند الناس " حكما عادلا " أتى هنا بلفظ العادل بخلاف رواية الشاهد قال فيها " حكما مقسطا " فلفظ العادل هنا يتناسب مع ما قبله من ألفاظ حيث قرن المتداول بمثله ، والبعيد بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة وبذلك يتأكد لنا بوضوح كيف كان الرسول ﷺ دقيقا في اختيار الألفاظ والمناسبة بينها بحيث تأتي الألفاظ كلها في مستوى واحد وعلى نمط معين من

---

١ - الآيات ٤٤ - ٤٧ من سورة الحاقة .

٢ - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب : نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ ١ / ١٤٤ رقم ٢٤٤ .

أولها إلى آخرها حتى تبدو للناظر متناسقة ومؤتلفة ففي الرواية الأولى وهي موطن الشاهد اقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظ بلفظة من جنسها في الغرابة والبعد توخيا لحسن الجوار ورغبته في تعادل الألفاظ في الوضع وتناسبها في النظم ولما أراد غير ذلك قال في الرواية الثانية " والله ليزلن ابن مريم حكما عادلاً " فأتى بالألفاظ المتداولة التي وليس فيها بُعد ولا غرابة .

ومن التلاف اللفظ مع اللفظ ما روى " أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لقد كان نساء من المؤمنات يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن وما يعرفن من تغليس رسول الله ﷺ بالصلاة "[1].

في هذا الحديث دعوة غير صريحة إلى تخفيف صلاة الصبح والمسارعة في إقامتها لدرجة أن رسول الله ﷺ كان يصلي بالنساء ويرجعن النساء وما يعرفهن أحد من أجل إقامتها في ظلام آخر الليل بعد طلوع الفجر .

ولعل القارئ للحديث يدرك من أول وهلة التلاف الألفاظ بعضها مع بعض حيث جاءت في درجة متوسطة بين الغرابة والاستعمال ، فتأمل قوله ﷺ " متلفعات " أي متجللات متلففات وهذه الكلمة غير متداولة بيننا الآن بكثرة وفيها شيء من الغرابة وليست الغرابة التي تخرج الكلمة من فصاحتها وبلاغتها ولكن غرابتها تأتي من قلة الاستعمال والا فهي في غاية الفصاحة والبلاغة .

ثم أتى بقوله " بمروطهن " رعاية لحسن الجوار والمناسبة أي بأكسيتهن واحدها مرط بكسر الميم فهذه الكلمة مؤتلفة مع ما قبلها من حيث قلة الاستعمال .

ثم أتى بقوله " ينقلبن " ولعل " يرجعن " أكثر منها في الاستعمال ، ولكن أتى بها لحسن الجوار والمناسبة .

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب : استحباب التكبير بالصبح في أول وقتها ١ / ٤٦٢ - ٤٦٣ رقم ٢٣١ .

وفي الآية الثانية ذكرت كلمة الاعتداء مرتين : اعتدى الأولى : معناها التعدي ومجاوزة الحد ، واعتدوا عليه الثانية معناها جازوه والجزاء لا يكون اعتداء ولكن القرآن عبر عن الجزاء بالاعتداء في قوله " فاعتدوا " من باب المشاكلة اللفظية لوقوعه في صحبته .

وكذلك في الآية الثالثة سمي الجزاء على المكر مكرا من باب المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا .

وبذلك يتبين لنا أن المشاكلة إما أن تكون تحقيقية أو تقديرية ولعل التقديرية لا تقع في حديث رسول الله ﷺ ، أولست من الذين يستطيعون كشفها. والله أعلم .

والذي جعلني أضم المشاكلة إلى وجوه مراعاة النظير ، لأن فيها مراعاة للمعنى الحال ، ومناسبة لمعنى الكلام كما شاهدنا في بعض الأمثلة التي عرضناها كقوله تعالى : { ومكَرُوا ومكَرَ اللَّهُ } نجد أن المولى سبحانه وتعالى -- سمى الجزاء على المكر مكرا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ والاختلاف في المعنى كما ذكر الصابوني أن العرب تقول : ظلمني فلان فظلمته أي جازيته بظلمه [1] ولما جعلناها وجها من وجوه مراعاة النظير من محض مناسبة وقوع الكلمة إلى جوار أختها لإصابة المعنى الدقيق المطلوب لها .

ومن المشاكلة في أحاديث رسول الله ﷺ التي وردت في صحيح مسلم ما روى أن عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَصِيرٌ ، وَكَانَ يَحْجِرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي فِيهِ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاتِهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ، وَإِنَّ أَحَبَّ

---

١ - ينظر : تفسير الصابوني ١ ص ١٢٧ .

الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ ، وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلا أَثْبَتُوهُ "[1].

ومما لاشك فيه أن ديننا دين اليسر والسهولة ، تقبله النفس البشرية بكل رضا واستجابة ، لأنه منزل من الله عز وجل ، والله جل جلاله يعرف النفس البشرية منذ اللمسة الأولى ويعرف ضروفها ومنحنياتها ويصرفها بلطف ويعرف مداخلها ومخارجها فيسلك إليها على الاستقامة ويعرف مقدرتها فلا يتجاوزها أبدا ويعرف حاجاتها وأشواقها فيلبيها تماماً ولذلك في هذا الحديث دعوة صريحة على المداومة على العمل الصالح وإن كان قليلا لأن القليل الدائم خير من كثير ينقطع وحتى لا تسأم النفس البشرية من ثقل العبادة عليها .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يوجه إلينا هذا الخطاب " يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا " أي التزموا ما تطيقون الدوام عليه بلا ضرر فإن الله لا يمل حتى تملوا : والملل المتعارف لدينا محال في حق الله تعالى إنما معناه : أن الله لا يعاملكم معاملة المال فيقطع عنكم ثوابه وجزاءه وبسط فضله ورحمته حتى تقطعوا عملكم [2] .

وفي قوله ﷺ لا يمل حتى تملوا " مشاكلة حقيقية ، فالأصل إن الله لا يقطع ثوابه وفضله عنكم حتى تملوا عن عمله ، فوضع لا يمل موضع لا يقطع الثواب على جهة المشاكلة .

وهذا من بلاغته ﷺ العالية ، لأن هذه المشاكلة أفادت حسنا ومزايا نفتقدها إذا ما ذكر اللفظ الحقيقي للمعنى المعبر عنه ، لأننا نجد أن في التعبير

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين - باب : فضيلة العمل الدائم ١ / ٥٤١ - ٥٤٢ رقم ٨٨٢ .

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٣ / ٣٣١ - درسات نبوية في الأحاديث النبوية - د/ محمد السيد الأعطفي الندوي ص ٤٠٠ - بتكنا الميكان - الطبعة الأولى -- ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .

بلفظ " إن الله لا يمل " مكان " إن الله لا يقطع ثوابه وفضله عنكم " إفادة لشدة التحذير وقوة الردع والزجر من الإسراف فى العبادة وتحمل النفس البشرية ما لا تطيق مما يؤدى بها إلى الملل والسآمة حتى ألها تقطع هذا العمل بالكلية والإسلام لا يريد منا ذلك ، وإنما يطالبنا بالمداومة على العمل الصالح وإن كان قليلاً . لأن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والمراقبة والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة ، فضلاً عن أن هذه المشاكلة توحى بكمال شفقة الرسول ﷺ ورأفته بأمته لأنه يرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط والقلب منشرحاً فتم العبادة بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق فإنه يصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم ، أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، قد ذم من اعتاد عبادة ثم أفرط فيها فقال " ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله تعالى فما رعوها حق رعايتها "[1] . وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تركه قبول رخصة رسول الله ﷺ فى تخفيف العبادة ومجانبة التشديد [2] .

كما أن هذه المشاكلة يفهم منها أن المداومة على العمل خير مقياس لمعرفة يسر العبادة واعتدالها ولأنها تعطى الآخرين نموذجاً وتحثهم على الإقبال على هذا الدين ، لأن التشدد فى الدين والغلو فى تطبيق فرائضه وشرائعه ينفر الناس منه وإنما المطلوب هو السداد من غير إفراط ولا تفريط ، وقد زاد من قيمه هذه المشاكلة وبلاغتها هذا النداء الذى تقدمها " يا أيها الناس " فالنداء به النفس وتجعلها تصغى باهتمام وشوق إلى ما سيلقى عليها من أخبار ، فإذا جاء الخبر تمكن فى النفس فضل تمكن وأصبح راسخاً .

---

١ - من الآية ٢٧ من سورة الحديد .

٢ - ينظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٣ / ٣٣١ .

ومن المشاكلة أيضاً ما روى " عن أسماء قالت : قال رسول الله ﷺ : **أنفحى ، أو أنضحى ، ولا تحصى ، فيحصى الله عليك ، ولا توعى فيوعى الله عليك** "[1]

هذا الحديث بين العقوبة التى تنتظر البخلاء وجزاء المتصدقين فى " الدنيا " فمعنى قوله " ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك " ، أى : لا تدخرى وتشدّى ما عندك وتمنعى ما فى يدك فيقطع الله عليك مادة الرزق .

فقوله ﷺ : " ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك " من باب المشاكلة ، فالإيعاء جعل الشئ فى الوعاء ، وأصله الحرص والمراد به هنا منع الفضل عمن افتقر إليه ، ومعنى فيحصى الله عليك ويوعى عليك أى يمنعك فضله ويقترن عليك ما منعت وقترت .

فقد سمى الرسول ﷺ منع فضل الله عن الذين يبخلون بالصدقات إيعاء أو إحصاءً من باب المشاكلة وهى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقيا .

[3] فنسبة الإيعاء والإحصاء إليه سبحانه وتعالى مشاكلة ، لأنه لا يصح أن يتصف بذلك على الحقيقة وإنما ساغ ذلك الاتصاف لوقوعه فى صحبة الإحصاء والإيعاء من عباده والمعنى إن الذى يبخل بالصدقة ويمسك عليها فالله سبحانه وتعالى – يمنع فضله وسعة رزقه عنه .

وهذه المشاكلة تحذر البخلاء من الإقدار عليهم بسبب بخلهم ، كما أنها ترغب وتحث المتصدقين على زيادة الصدقة ، وتبين لهم بأن الإنفاق سبب من أسباب الرزق والتعويض وهذا ما أخبرنا به المولى – سبحانه وتعالى – فى كتابه العزيز : { وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ }[2]

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة - باب : الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء ٢ / ١٤٢ رقم ١٠٢٩ .

٢ - من الآية ٣٩ من سورة سبأ .

وبذلك تكون هذه المشاكلة قد صورت الادخار وعدم الإنفاق واكتناز الأموال بالإيعاء وهو جعل الشئ فى الوعاء والربط عليه وان ذلك يكون سبباً لأن يمنع الله فضله وسعة رزقه على هذا البخيل .

ومما يعضد هذه المشاكلة ويصعد حدة التحذير من البخل أن الرسول ﷺ قد مهد لها بصيغة الأمر " انفحى أو انضحى أو انفقى " أى : أعطى ؛ لأن النضح أو النفح بمعنى العطاء فسيدنا رسول الله ﷺ يأمر السيدة أسماء ويأمر كل مسلم من أمته بالإعطاء وعدم البخل لأن المال مال الله ، وجعلهم الله مستخلفين فيه ، وليس لهم إلا أن ينفذوا أوامر المالك الحقيقى الذى له ملك السموات والأرض ، وملكيه الإنسان ملكيه نسبية لا يكابر فيها عاقل ، فتمد قليل لم يكن فى يده شئ وبعد قليل لن يبقى فى يده شئ وسبحان ومن يرث الأرض ومن عليها .

ومن المشاكلة أيضاً روى " عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ ،فَقَالَ : يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ،قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ،ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ،ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ : قَالَ :هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ قَالَ :قُلْتُ :اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً قَالَ : يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ

وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ :اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ :أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ " [1] .

هذا الحديث يبين لنا الغرض الذى خلق الله العباد من أجله ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وهذا ما صرحت به الآية الكريمة : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [2] .

ثم يبين لنا الحديث جزاء العباد إذا فعلوا ما أمرهم الله به ، وعبدوه حق عبادته ، فالله – سبحانه وتعالى – يحرم أجسادهم على النار .

فقول سيدنا رسول الله ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل فى نهاية الحديث " هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك " من باب المشاكلة ؛ لأن الأصل هل تدرى ما جزاء العباد على الله إذا فعلوا ذلك ، فوضع " ما حق " موضع " ما جزاء " على جهة المشاكلة ، لأن الله سبحانه وتعالى – ليس لأحد عليه حقوق يعذب من يشاء من عباده ويرحم من يشاء – { لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [3] وإنما ساغ ذلك الاتصاف " ما حق العباد " لوقوعه فى صحبة " ما حق الله على العباد " ومعناه ما يستحقه عليهم متحتماً عليهم .

والسر البلاغى الذى أتت من أجله هذه المشاكلة هو : تأكيد تحقق الجزاء من الله – تعالى – ترغيباً فى إخلاص العبادة ، وحث يشد من عزائمنا ويقوى من إرادتنا وكأن دخولنا الجنة حق ، ألزمه الله على نفسه وفى ذلك ترغيب وتشويق وحث على التمسك بأوامر الله وحدوده ، والاستقامة عليها وعدم التفريط فيها لكى ننجو ونفوز ونكون من الذين قال الله فيهم : { فَمَن

---

١ – أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان – باب : الدليل على إن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١ / ٦٦ رقم ٣٠ .

٢ – الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

٣ – الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ } [1]

اللهم إن أجسامنا ضعيفة لا تقوى على النار فحرمها على النار بفضلك ورحمتك وسعة عفوك إنك قريب مجيب الدعوات .

ومن المشاكلة أيضاً ما روى " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي ، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا ، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " [2].

هذا الحديث دعوة صريحة فى الإكثار من ذكر الله فى كل وقت وعلى أى هيئة كان عليها الإنسان من قيام وجلوس ونوم وغير ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل للذكر هيئة مخصوصة بل قال : { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ }[3] وفى المقابل فالله سوف يجزيه الجزاء الأكبر ويذكره فى الملأ الأعلى " اذكروني أذكركم[4] فى صورة أحسن وأفضل من ذكر العبد له .

وهذا الحديث فيه أكثر من مشاكلة :

الأولى فى قوله " إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى " فجئ بقوله " ذكرته فى نفسى " على جهة المشاكلة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن أوصاف

---

١ - من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

٢ - أخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب : الحث على ذكر الله تعالى ٤ / ٣٦٦ رقم ٢٦٧٥ .

٣ - من الآية ١٩١ من سورة آل عمران .

٤ - من الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

المخلوقين تعالى عن ذلك علوا كبيراً ، والأصل اذكروني بالطاعة أجازيكم بالثواب ، فوضع" ذكرته فى نفسى " موضع " أجازيه بالثواب" على جهة المشاكلة لوقوعه فى صحبته تحقيقاً .

الثانية فى قوله : " إن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأهم خير منهم " فهذا أيضاً على جهة المشاكلة ، أى إن ذكرنى فى جماعة جازيته بالثواب الذى يناسب كثرته وجماعته .

والثالثة فى قوله " وإن تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعاً " الأصل :إن العبد إذا زاد فى العبادة وتزود منها ضاعفت له الثواب والأجر ، ولكن عدل عن هذا إلى قوله " تقربت إليه ذراعاً " من باب المشاكلة ، ونفس هذا المعنى قوله " وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً .

والرابعة فى قوله " وإن أتانى يمشي أتيته هرولة " فهذه الصفات محالة فى حق الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه منزه عن أوصاف المخلوقين وهو القائل : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [1] . فهذه الصفات جاءت على جهة المشاكلة والله أعلم .

---

١ - من الآية ١١ من سورة الشورى .

الوجه الخامس

حسن النسق

حقيقة " حسن النسق أن تأتي الكلمات النظمية والنثرية متتاليات ومتلاحمات تلاحماً سليماً "[1].

وقد عرفه ابن أبي الإصبع بقوله : أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات ومتلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً لا معيباً مستهجناً . من ذلك أن يكون كل بيت إذا انفرد قام تاما بنفسه واستقل معناه بنفسه وإن رددته محاورة صار بمنزلة البيت الواحد . بحيث يعتقد السامع أنهما إذا اتصلا تجزأ حسنهما وتقص تمامهما . وتقسم معانيهما وهما ليسا كذلك بل حظهما في تمام المعنى وكمال الحسن مع الانفراد والاقتراف كحالهما مع الالتئام والامتزاج .

ومن شواهد هذا الباب من الكتاب العزيز قوله تعالى : { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[2] ، فأنت ترى إتيان هذه الجملة معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على التركيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه سبحانه بدأ بالأمر إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها ، ولا يحصل ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع ، ثم علم - عز وجل - أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تنقطع مادة السماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها وربما كان ما ينزل من السماء مخلفاً لما تبتلعه الأرض من الماء فلا يحصل الانحسار فأمر سبحانه السماء بالإقلاع

---

١ - ينظر : جوهر الكنز - الجزء الأول في البديع ص ٢٥٨ - تحقيق د/ محمد زغلول سلام - دار نشر منشأة المعارف .

٢ - الآية ٤٤ من سورة هود .

ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ماء الأرض وانقطعت مادة السماء ، ومقتضى الترتيب أن تأتي هذه الأخبار ثالث الجملتين المتقدمتين ثم قال سبحانه " وقضي الأمر " أي هلك من حق القاسم بهلاكه ونجا من سبق العلم بنجاته وهذه كله الآية وحقيقة المعجزة ، فلذلك اقتضت البلاغة مجيء هذه الجملة رابعة الجمل ، وكذلك استقرار السفينة على الجودي ! أي استقرارها على المكان الذي استقرت عليه استقراراً لا حركة معه لتبقى آثارها أية لمن يأتي بعد أهلها وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما ذكرناه .

وقوله سبحانه " وقيل بعداً للقوم الظالمين " وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الغرق لشموله الأرض ربما هلك به من لا يستحق الهلاك فدعا سبحانه على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب احتراساً من هذا الاحتمال وذلك يقتضي أن يكون مجيء هذه الجملة بعد كل ما تقدم ، فانظر إلى حسن هذا النسق وصحة هذا الترتيب في الجمل المعطوف بعضها على بعض لتعلم قدر هذا النظم[1] !!

ومن حسن النسق في كلام سيدنا رسول الله ﷺ ما روى من حديث أبي عمر بن الخطاب قال : " بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ

---

١ - ينظر : بديع القرآن ص ١٦٤ - ١٦٥

سَبِيلاً . قَالَ : صدقتَ . قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِيمَانِ . قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ . قَالَ : صَدَقْتَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنِ الإِحْسَانِ . قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » . قَالَ : فَأَخْبِرْنِى عَنْ أَمَارَتِهَا . قَالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ » . قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِى : « يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » [1].

هذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه[2].

والذى يعنينا من هذا الحديث حسن السبك الذى اشتمل عليه حيث جاءت كلماته متتالية ومتعانقة منسوقة بعضها على بعض بحيث لا يمكننا أن نقدم فقرة على فقرة . ولا نؤخر كلمة على أخرى فالألفاظ جاءت متسلسلة تسلسلاً دقيقاً . فانظر إلى بداية الحديث " بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل " المراد به – سيدنا جبريل – عليه السلام – وقد أتى على صورة رجل ، وجاء اللفظ منكرا ، لزيادة المبالغة فى تعمية أمره على الحاضرين وإذ فى قوله " إذ طلع " تفيد أن طلوعه كان فجاءة عليهم وبدون

---

١ – أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان – باب : بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٤٥ – ٤٦ رقم ١ .
٢ – نظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ١٩٧ بالهامش .

تمهيد سابق ، ثم جاء بعد ذلك الحديث ليصف لنا هذا الرجل " شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد " وهذه الأوصاف تدل على عظمة سيدنا جبريل والمبالغة فى إثبات الضياء والنور له ، وسر مجيئه على هذه الهيئة ليثير انتباه الحاضرين ويجعلهم أكثر وعيا لما يقال لهم .

ثم جلس سيدنا جبريل إلى جوار النبى ﷺ وقال له " يا محمد " ناداه باسمه مع أن الله عز وجل – يقول : { لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً } ، زيادة فى التغريب عند افتتاح الخطاب بالمسألة ، فضلاً عن أن الملائكة ليسوا داخلين فى مثل هذا الخطاب [1] .

ثم يبدأ سيدنا جبريل – عليه السلام – حواره مع رسول الله ﷺ بقوله " أخبرنى عن الإسلام " وبدؤه بالسؤال عن الإسلام دليل واضح على حسن السبك فى الحديث ، حيث بدأ بالأمر الظاهر وهو الإسلام ، ثم عن الإيمان لأنه بالأمر الباطن ، ثم عن الإحسان ، ورجح بعض العلماء هذا لما فيه من الترقى[2] . فالإيمان أعلى درجة من الإسلام ، لأنه ليس كل مسلم مؤمناً ، وإنما كل مؤمن مسلم ، كما أن الإحسان مرتبة أعلى من الإيمان .

ثم أخذ الرسول ﷺ يبين له أسس الإسلام الذى قام عليها وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وبدأ بالشهادتين لأنهما مفتاح الدخول فى الإسلام ثم بعد ذلك يطالب بتعاليم الإسلام وأحكامه ، أما إذا لم ينطق الرجل بالشهادتين فلا يطالب بشىء من تعاليم الإسلام ، من أجل ذلك يتجلى لنا بوضوح سر بدأه بالشهادتين .

ثم الركن المهم الذى يمثل صلة العبد بربه وهو إقامة الصلاة " وتقديم الصلاة " ما الذى جعل الرسول ﷺ يجعل الصلاة فى المرتبة التالية من دعائم

---

١ – ينظر : دليل الفالحين ١ / ١٨٥ .
٢ – ينظر : فتح البارى ١ / ١٤٧ .

الإسلام ، لأن جميع الأعمال تتوقف عليها ، إذ صلحت صلح سائر عمله ، وإذا فسدت فسد سائر عمله ، كما أن الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ، فضلاً عن أن الصلاة تحجب الإنسان عن الذنوب والمعاصي { إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } (١) .

أضف إلى ذلك أن الصلاة " هي الركن الوحيد الذي كان يلازم التوحيد وتزلت أوامرها في مكة مع ركن الإيمان ولم يزل أي أمر بفروضها في مكة على الإطلاق ، ذلك لأنها أول مظهر للتوحيد وأوثق صلة به "(٢) .

ثم بين الركن الذي يليه وهو الذي يمثل أرفع جوانب التعاون والتكافل في صلة المسلم بأخيه وهو أداء الزكاة ، حتى يعيش الفقير بجوار الغني في مودة ورحمة وسعادة ، أما إذا بخل الغني بإخراج زكاة ماله للفقير فترى الفقير يكن له بغضاً وحسداً وكراهية من أجل ذلك جاءت الزكاة في المرتبة الثالثة من أسس الإسلام ، ليعيش الناس في صفاء ومودة ويكسوهم روح الحب .

ثم بين لنا الركن الرابع من أركان الإسلام وهو " وتصوم رمضان " والصيام سر بين العبد وبين ربه ، فقد يأكل الإنسان ويشرب ولا يطلع عليه أحد إلا الله - عز وجل - من أجل ذلك جعل الله ثواب الصائم سرا بينه وبين عبده .

ثم ختم أسس الإسلام بقوله " وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا " تلك الفريضة التي تتشوق إليها نفس كل مسلم ليرجع مطهراً من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

---

١ - من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

٢ - أدب الحديث النبوي - تأليف / بكري الشيخ أمين ص ١٢٤

وختم الرسول ﷺ أسس الإسلام بالحج لأنه بدأ بالأيسر ثم الأيسر وهكذا ، فإذا تأملنا أول ركن نجده يتمثل في النطق بالشهادتين والنطق بالشهادتين لا يكلف الإنسان جهدا ولذلك بدأ به الرسول ﷺ .

ثم بعد ذلك الصلاة ، لأن الصلاة سهلة وميسورة للجميع ، ولذلك هي الفريضة الوحيدة التي لن تسقط عن الإنسان مهما كانت ظروفه وأحواله ، من لم يستطع أن يصلي قائما صلى قاعدا ، فمن لم يستطع الصلاة قاعدا صلى مضجعا ، ومن لم يستطع صلى بأصبعه ومن لم يستطع صلى برمش عينه ، إذن هي يسيرة ولذلك جعلت بعد الشهادتين .

ثم بعد ذلك الزكاة ، وإذا تأملنا الركنين السابقين عليها نجد أنها أيسر منها لأن الزكاة تحتاج من الإنسان مجاهدة لكي يحارب نفسه ويتغلب على هواه ويخرج زكاة ماله ، ولذلك نجد أناساً كثيرين يصلون ولا يخرجون زكاة أموالهم ، ولكننا لم نسمع بأن أحداً يخرج زكاة ماله وهو تارك للصلاة ، فتركه للصلاة دليل واضح على تركه للزكاة لأن الإنسان جُبل على حب المال والتمسك به أما الصلاة فليس فيها دفع أموال .

ثم بعد ذلك صيام شهر رمضان وهو أصعب من سابقيه ، لأن فيه مشقة وجهداً كبيراً على النفس ، فكونها تمتنع عن كل المفطرات طوال النهار وتصوم الصوم الحقيقي الذي يحبه الله ورسوله فهذا ليس بالأمر اليسير ولذلك جعله الرسول ﷺ في المرتبة الرابعة لأن هناك أناساً أموالهم أسهل عليهم من الصوم .

ثم ختم أركان الإسلام بحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، لأن هذا الركن أصعبهم وأشقهم على النفس ، لأن فيه مشقة جسدية ومالية جمع بين المشقتين بخلاف الأركان السابقة فهي إما مشقة جسدية وإما مشقة مالية فالصلاة مثلاً مشقة جسدية فقط وليس فيها دفع مال ، والزكاة مشقة مالية فقط ليس فيها مشقة جسدية ، ولذلك بين لنا دقة الرسول ﷺ في حسن

التسلسل بين أركان الإسلام ، فكل ركن جاء في المرتبة التي تناسبه ، وقد جاءت الأركان متسلسلة تناسقاً تصاعدياً .

ثم بعد ذلك انتقل سيدنا جبريل - عليه السلام - بالسؤال عن الإيمان فأجاب النبي ﷺ بقوله " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره " وكان السؤال عن الإيمان في المرتبة الثانية من الحوار ، لأن الإيمان أعلى درجة من الإسلام وهذا هو ما يستوجبه حسن التسلسل بأن يبدأ بالأمور الظاهرة أولاً وهي أركان الإسلام ثم بعد ذلك بالأمور الباطنة وهي أركان الإيمان ، لأن أركان الإسلام ظاهرة تشاهد بالعين ، أما أركان الإيمان فخفية تعتمد على القلب .

وتأمل دقة التناسق في ترتيب أركان الإيمان ، فالإيمان أولاً يكون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فالتناسق هنا تدارياً وليس تصاعدياً كما في أركان الإسلام ثم بعد ذلك الإيمان بالملائكة ، وبالكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره وقد ذكر الله في كتابه العزيز الإيمان بهذه الأصول وبنفس ترتيب الحديث في قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

ثم بعد ذلك انتقل سيدنا جبريل إلى السؤال عن الإحسان فأجاب النبي ﷺ بقوله " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " أي أن يفرغ المؤمن في عبادته غاية الإخلاص ، وتفريغ البال والخشوع حتى كأنه يرى ربه فإن لم يكن يراه فالله - عز وجل - يراه ومطلع عليه في كل وقت وفي كل حين

١ - الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

ويلاحظ أن السؤال عن الإحسان جاء في المرتبة الثالثة لما فيه من الترقي ، لأن الإحسان أعلى درجة من الإيمان ، كما أن الإيمان أعلى درجة من الإسلام .

ويستمر الحوار بين سيدنا جبريل وسيدنا رسول الله ﷺ ، ويسأله عن الساعة ، وليس السؤال عن الساعة ، ليعلم الحاضرون كالأسئلة السابقة بل ليرجعوا عن السؤال عنها فلما وقع الجواب بأنه لا يعلمها إلا هو ، كفوا عن السؤال ، وهذا بخلاف الأسئلة الماضية فإن المراد منها استخراج الأجوبة ليتعلمها السامعون ويعملوا بها ، ونبه هذه الأسئلة على ما تفصيل ما يمكن معرفته مما لا يمكن (١) .

وسؤاله عن الساعة بعد هذه الأسئلة السابقة كان في غاية التسلسل ، لأن الأسئلة السابقة كانت تتعلق بالتكاليف والعبادات التي يطالب بها العباد في حياتهم الدنيوية ، أما هذا السؤال فيتعلق بالحياة الأخروية ، وكأن سائلاً سأل وقال : إذا ما انتهت الحياة الدنيا هكذا يحدث أثناء الساعة ومتى هي ؟

ثم بعد ذلك سأله عن أمارات الساعة فأجاب النبي ﷺ بقوله " أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان " كل ذلك في تناسق محكم وترتيب دقيق ، بحيث لو تأملنا هذه الأسئلة التي وجهت إلى سيدنا رسول الله ﷺ ما استطعنا أن نقدم فيها سؤالاً على سؤال ونؤخر فيها سؤالاً عن موضعه لأنها جاءت متسقة ومرتبة ترتيباً تصاعدياً تقتضيه البلاغة النبوية ، ثم الوصول بها إلى النتيجة النهائية " يا عمر أتدري من السائل ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " .

١ - ينظر : فتح الباري ١ / ١٥١ - ١٥٢ .

كل هذا فى أسلوب بديع يجعل الإنسان يقف مبهوراً أمام البلاغة النبوية ولا عجب فى ذلك فهى مستمدة من وحى الله { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى } [١].

ومن حسن النسق أيضاً ما روى " أن النبى ﷺ قال : الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : لِلَّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ "[٢].

فى هذا الحديث الشريف الذى يمثله ذلك الحوار الموجز بين سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، تتجلى البلاغة النبوية فى أرقى مظاهرها وأسمى معانيها ، حيث يوضح لنا الرسول ﷺ أمرا له أثره وخطره فى هذا الدين من خلال كلمات معدودات متناسقات وأسلوب موجز قلما يستطيعه أكثر العرب بياناً وأبلغهم أداءً

يتضح ذلك من خلال حسن النسق الذى اشتمل عليه هذا الحديث الشريف حيث بدأه الرسول ﷺ بعبارته الجامعة " الدين النصيحة " وهى عبارة قلما تحل غيرها مكانها وتنهض بما تضمنت به من معان وقيم ودلالات ومن هنا قيل : إن هذا الحديث ربع الدين وقال النووى بل هو محصل لغرض الدين كله "[٣].

ولذلك نجد التناسق التام فى ترتيب النصيحة " قلنا لمن ؟ قال : لله " ومعنى النصيحة لله : الخضوع له ﷻ وإفراده بالألوهية ، وصحة الاعتقاد فى وحدانيته وإخلاص النية فى عبادته ، وتلقى منهج الحياة ونظامها وسلوكها من شريعته ومن هنا كان الإخلاص لله متضمنا لنبذ جميع وسائل الإشراك به من

١- الآيات ٣ ، ٤ من سورة النجم.

٢- أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان - باب بيان أن الدين النصيحة ١ / ٨١ رقم ٩٥

٣- يُنظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٣١٤ .

تعظيم غيره أو التوسل بغير العمل الصالح ، كما يقتضى هذا الإخلاص ألا يحب الإنسان إلا الله ولا يبغض إلا لله ، وأن يوالى الطائعين ويعادى العصاة والمارقين [١].

ثم كانت النصيحة لكتاب الله فى المرتبة الثانية ، ومعنى النصيحة لكتاب الله : الإيمان به والعمل بما يرشد إليه وتعظيم قدره ودوام تلاوته ومدارسة علومه وتدبر آياته وتنفيذ أحكامه التى تنظم علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبالمجتمع كما تنظم علاقة المجتمع المؤمن بالمجتمعات الأخرى وترسم له طريقة التعامل المثالية مع أتباع الديانات الأخرى.

ثم كانت النصيحة لرسول الله ﷺ فى المرتبة الثالثة ، ومعناها إحياء سنته ﷺ والاقتداء بها عقيدة وسلوكاً ، فلا تتوقف عند حدود المشاعر والكلمات وإنما تستقر فى القلب ويصدقها أو يكذبها العمل .

ثم جاءت النصيحة لأئمة المسلمين فى المرتبة الرابعة ، وتتمثل فى طاعتهم إذا التزموا بفرائض الله وسنن رسوله ﷺ ، وتشمل أيضاً معاونتهم وتنبيههم فى رفق ولين حتى لا تحدث فتن قد لا يحمد عقباها.

ثم يختم الرسول ﷺ حديثه بالنصيحة لعامة المسلمين بأن يحب المرء لهم ما يحبه لنفسه ويكره لهم ما يكرهه لها ويشفق عليهم ويرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم ويشاركهم آلامهم وآمالهم ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم فى الدين والدنيا ويستر عوراتهم ولا يفشى أسرارهم ويدفع الأذى عنهم وأن يكون رفيقاً بهم عند دعوته لهم ، متسماً بالحكمة ولين الجانب [٢].

١- يُنظر : من صور البيان النبوى " قصة فى حديث " - تأليف أ . د / رزق محمد داود ص٣٥ - الجزء الأول - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

٢- يُنظر : من صور البيان النبوى ص ٣٦ ، ٣٧ .

وبذلك يكون الرسول ﷺ راعى حسن النسق فى حديثه الشريف وكان التناسق تنازلياً بدأ من الأعلى ثم الذى يليه بدون إخلال بالمعانى وإجحاف للحقوق بحيث لا يمكننا أن نقدم نصيحة على أخرى ، لأن النصيحة فى الدرجة الأولى لله ، وفى الدرجة الثانية لكتابه ، وفى الدرجة الثالثة لرسوله ، وفى الدرجة الرابعة لأئمة المسلمين وفى الدرجة الخامسة لعامة المسلمين ، فانظر إلى حسن هذا النسق ، كيف رتب النصيحة ترتيباً تنازلياً حيث بدأ من الأهم إلى المهم كل ذلك فى أسلوب موجز وعبارات دقيقة وصفت المعانى أدق وصف وأدت الغرض المنشود لها فى إحكام ودقة.

ومن حسن النسق أيضاً ما روى " عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ، قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ ، قَالَ : قِيلَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ ، قَالَ : قِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ : يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : يُمْسِكُ عَنْ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ "(١).

يخبر الرسول ﷺ فى هذا الحديث الشريف بأن كل مسلم عليه صدقة ويرشده إلى أن مصادر الصدقات وطرقها كثيرة ومتنوعة وقد أوردها الرسول ﷺ متتابعة ومتسلسلة تسلسلاً تنازلياً من الأصعب إلى الأيسر.

فعندما أخبر أنه بأن كل فرد منهم عليه صدقة سُئل " أرأيت إن لم يجد قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق " أى إن لم يجد المسلم ما يتصدق به فعليه أن يعمل بيديه ويكسب المال وينفق على نفسه وأولاده ويتصدق بجزء من عمل يديه .

١- أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة – باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعرف ٢ / ١٢٦ – ١٢٧ – رقم ١٠٠٨ .

ثم سُئل " أرأيت إن لم يستطع قال : يعين ذا الحاجة الملهوف " أى إن لم يستطع العمل لأى سبب من الأسباب فعليه أن يعين ذا الحاجة المكروب ويفك كربته فهو عمل من أعمال المروءة التى يشكرها الله للعبد ويحسبها له صدقة .

ثم سُئل " أرأيت إن لم يستطع قال : يأمر بالمعروف أو الخير " فهذه صدقة أيسر من الصدقات التى قبلها فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يحتاج منه إلى جهد كبير .

ثم سُئل " أرأيت إن لم يفعل قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة " وتأمل دقة الرسول ﷺ فى اختيار ألفاظه حيث اختار هنا قول " أرأيت إن لم يفعل " ولم يعبر بقوله " إن لم يستطع " لسهولة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان السائل أراد أن يقول له بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سهل وميسور لدى الجميع كل منا يأمر على حسب علمه وقدرته ، ولكن يا رسول الله ، ماذا نقول له إن لم يأمر بالمعروف مع سهولته ، قال "يمسك عن الشر فإنها صدقة " وهذا يدل على أنه يكفيه أن لا يفعل شيئاً من الشر فى إسقاط هذا الوجوب ، وهذا توجيه كريم فى غاية الأهمية والنفع فإن لم يستطع المرء أن يقوم فى مجال الخير بأعمال إيجابية لسبب من الأسباب فلا أقل من أن يمتنع عن إيذاء الناس واقتراف أى نوع من الشرور .

وبذلك يكون الرسول ﷺ قد رتب أنواع الصدقات التى يمكن أن يتصدق بها المسلم فى نسق تام وتسلسل بليغ حيث بدأها من الأصعب إلى الأيسر وهذا الترتيب يدل على أن الصدقات لا تكون بالمال فقط بل تشمل كل ما فيه نفع للمسلمين من إعانتهم أو دفع الأذى عنهم أو كف الشر عنهم .

أضف إلى ذلك إلى أن حسن النسق فى هذا الحديث يبين لنا فى تسلسل عجيب فضل الله الواسع حيث أتاح للناس أنواعاً من الصدقات ميسورة وميسورة لا تحتاج غنى ولا تكلف عنتا ولا شدة ولكنها تحتاج إلى عزم وحركة وإلى إنسان إيجابى فعال .

الوجه السادس

الانسجام

وهو أن يأتي الكلام منحدرًا كتحدر الماء المنسجم ، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور واليت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره مع خلوه من البديع وبعده عن التصنيع ، وأكثر ما يقع الانسجام غير مقصود ، كمثل الكلام الموزن الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفوا كمثال أشطار وأنصاف وأبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز ورويت عن الرسول ﷺ فإن وقع من ذلك في غير القرآن بيتان فصاعداً سمي ذلك شعراً وإن لم يقصد وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه إلا مثال النصف أو اليت الواحد ، واليت المفرد لا يسمى شعراً [1] .

والحكمة في تنزيه القرآن والحديث النبوي عن الشعر الموزون مع أن الموزون من الكلام ، رتبته فوق رتبة غيره ، أن القرآن منبع الحق ومجمع الصدق ، وقصارى أمر الشاعر التخييل ، يتصور الباطل في صورة الحق والإفراط في الإطراء والمبالغة في الذم والإيذاء دون إظهار الحق وإثبات الصدق ولهذا نزه الله نبيه عنه ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمي أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية ، وقال بعض الحكماء : لم ير متدين صادق اللهجة مفلق في شعره .

وأما ما وجد في القرآن والحديث النبوي مما صورته صورة الموزون فالجواب عنه أن ذلك لا يسمى شعرا لأن شرط الشعر القصد ولو كان شعراً لكان كل من اتفق له في كلامه شيء موزون شاعراً فكان الناس كلهم شعراء لأنه قل أن يخلو كلام أحد عن ذلك وقد ورد ذلك على ألسنة الفصحاء فلو اعتقدوه شعراً لبادروا إلى معارضته والطعن عليه لأنهم كانوا أحرص شيء على

١- ينظر : تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ص ٤٢٩ .

ذلك وإنما يقع ذلك لبلوغ الكلام الغاية القصوى في الانسجام . وقيل البيت الواحد وما كان على وزنه لا يسمى شعراً وأقل الشعر بيتان فصاعداً ، وقيل : الرجز لا يسمى شعراً أصلاً وقيل : أقل ما يكون من الرجز شعراً أربعة أبيات وليس ذلك في القرآن ولا في السنة النبوية بحال[1] .

ومن الانسجام في الحديث النبوي ما روى " عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** "[2] .

في هذا الحديث الشريف يُرَغب الرسول ﷺ أمته في ذكر الله - عز وجل- لأن الذكر كنز من الكنوز التي توصل إلى الجنة وترفع درجات العبد يوم القيامة ومع ذلك فكثير من الناس يغفل عنه مع أنه لا يكلفهم شيئاً ولا يعطلهم عن مصالحهم .

فالرسول ﷺ يُرَغبُ في الذكر ويأتي بكلمات منسجمة سهلة النطق على اللسان وخفيفة الأداء تشعر فيها بموسيقى داخلية عندما تقرأ الحديث وتردده مرة تلو الأخرى ، إذ يسهل علينا حفظه مع تدبر معانيه لسهولة نطقه واستعابه فتأمل " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " .

فهذا الحديث لخلوه من الانعقاد يتحدر في النطق كتحدر الماء المنسجم ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة .

١- ينظر : الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٢ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – هيئة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

٢- أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة – باب : فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤ / ٣٧٧ رقم ٢٦٩٤ .

وبذلك يكون الرسول ﷺ قد جعل هذه الكلمات السهلة النطق المتحدرة كتحدر الماء الذى يسهل حفظها على اللسان قد بين لنا صيغة من صيغ الذكر ليس فيها كلفة على اللسان ولا مشقة فى الكلام بها ولا صعوبة فى استعمالها ، فضلاً عن أنها تُثقل ميزان العبد يوم القيامة وتخفف من أوزاره وتمحو من سيئاته وهذا من منح الله على عباده فقد يعطى الثواب الكبير على العمل القليل إذا كان خالصاً لوجهه الكريم وبخاصة أن هذه الصيغة التى يُرغب فيها رسول الله ﷺ فيها تنزيه الله عن الشريك والنظير وتحميده على سوابغ النعم وجزيل الفضل وتعظيمه بما هو أهله .

ومن الانسجام أيضاً ما روى " عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :

اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلا عَيْشُ الآخِرَهْ

فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ "[1].

هذا الحديث كان بمثابة التهييج والتشويق للصحابة رضوان الله عليهم عندما كانوا فى صفوف القتال فكان رسول الله ﷺ يحثهم على شدة قتال المشركين والنيل منهم حتى ولو أدى ذلك إلى استشهادهم فى سبيل الله ، لأن الحياة الأساسية هى حياة الجنة أما هذه الحياة الدنيا فما هى إلا طريق للآخرة .

وقد جاء ذلك فى أسلوب سهل ميسر تشعر فيه بزنة الشعر وهو ليس بشعر لأن شرط الشعر القصد وسيدنا رسول الله ﷺ لم يقصد ذلك وإنما خرجت الألفاظ سهلة مصبية للمعانى المرجوة خالية من التصنع والتكلف الذى يفسد الانسجام فى الكلام وتضيع معه الموسيقى المؤثرة الباعثة على فهم الكلام وحفظة فى أيسر سبيل ، ورسولنا ﷺ بعيد عن هذه الأشياء كل البعد فهو الذى

١- أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير - باب : غزوة الأحزاب وهى الخندق ٣ / ٢٩٠ رقم

أوتى جوامع الكلم وطوعت له ألفاظ اللغة وأصبحت فى يديه كالعجين يشكلها كيفما يشاء وعلى حسب احتياج المعانى التى يريد الرسول ﷺ أن يلقيها على السامعين وهذا هو سر البيان والوضوح والجمال والسجام الألفاظ المؤدية للمعنى المراد فى دفقة موسيقية مؤثرة .

ومن الانسجام أيضاً ما روى " عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بوساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط "[1].

روعة الانسجام ظاهرة فى الحديث ظهوراً لا يخفى على أصحاب الذوق والسليقة السليمة فالرسول ﷺ فى هذا الحديث الشريف يخبر بأن النعيم البالغ ينسى صاحبه ما كان لاقى من الشدائد وأن البؤس الشديد ينسى صاحبه ما كان لاقى من النعيم ، فيؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ صبغة فى النار فتنسيه كل ما كان قد رأى من مظاهر النعيم فيسأله ربه وهو أعلم به هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يا رب ، نعم يقسم أنه ما رأى خيراً ولا نعيماً وما هو بكاذب ولكن العذاب الشديد أنساه أنه كان أنعم أهل الدنيا .

إن هذا تصوير للنعيم العظيم فى الجنة والبؤس الشديد فى النار فهذا الذى أنساه هو صبغة واحدة فكيف حال العذاب الدائم المستمر أبد الآبدين

١- أخرجه مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب : صبغ أنعم أهل الدنيا فى النار وصبغ أشدهم بؤسا فى الجنة ٤ / ٢٨٠٧ رقم ١٨٠٥.

ومما زاد من شدة الموعظة هذا الانسجام الذى اشتمل عليه هذا الحديث . فكلماته لها نغمة موسيقية جميلة وخاصة إذا كررت الكلمات الواحدة بلو الأخرى فإننا نشعر بسهولتها وسرعة حفظها وتحدرها على اللسان كتحدر الماء المسجم وهذا هو الذى أوجد للحديث تأثيراً فى النفوس فضلا .

أضف إلى ذلك أن هذا الانسجام الذى اشتمل عليه الحديث وما جاء فيه من البديع غير مقصود تشهد الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل غير مزوق ولا متكلف فصلوات الله وسلامه على من بُعث بجوامع الكلم وأوتى هذه الفصاحة الرائعة وعلى آله وصحبه وسلم .

فضلاً عن أن هذا الحوار الذى اشتمل عليه الحديث زاد من روعة الانسجام لأن المعانى عندما تساق عن طريق الحوار تتمكن فى النفس فضل تمكن وتثبت فى الذهن .

الوجه السابع

تشابه الأطراف

وقد عرفه بعض العلماء بقوله : هو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى كقوله تعالى : { لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [١] .

فإن اللطف ناسب مالا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يدرك شيئاً فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به ، وقوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [٢] قال " لغنى حميد" لينبه على أن ماله ليس لحاجة بل هو منه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه .

ومن خفى هذا الضرب قوله تعالى { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [٣] فإن قوله تعالى : { وإن تغفر لهم } يوهم أن الفاصلة " الغفور الرحيم " ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة ولا يغفر لمن يستحق العذاب إلا لمن ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه ؛ لأن العزيز فى صفات الله هو الغالب من قولهم " عزه - يعزه - عزاً "إذا منه المثل " من عزَّ عزَّ " أى من غلب سلب ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضاً لأن الحكيم من يضع الشىء فى محله والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة فى بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة فكان بالوصف بالحكيم احتراس حسن أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد فى ذلك والحكمة فيما فعلته [٤] .

---

١ - الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

٢ - الآية ٦٤ من سورة الحج .

٣ - الآية ١١٨ من سورة المائدة .

٤ - ينظر : بغية الإيضاح ٤ / ١٥ ، ١٦ - مكتبة الآداب ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

فى حين أنا نجد الهاشمى يتحدث عن تشابه الأطراف ويقسمه إلى قسمين معنوى ولفظى :

والمعنوى هو أن يختم المتكلم كلامه بما يناسب ابتداءه فى المعنى كقول الشاعر :

ألذ من السحر الحلال حديثه ∴ وأعذب من ماء الغمامة ريقه

فالريق يناسب اللثة فى أول البيت .

واللفظى نوعان :

(أ) أن ينظر الناظم أو الناثر إلى لفظة وقعت فى آخر المصراع الأول أو الجملة فيبدأ بها المصراع الثانى أو الجملة التالية كقوله تعالى : { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ }[1] .

(ب) أن يعيد الناظم لفظ القافية من كل بيت فى أول البيت الذى يليه كقول الشاعر :

رمتنى وستر الله بينى وبينها ∴ عشية أرام الكناس رميم

رميم التى قالت لجيران بيتها ∴ ضمنت لكم ألا يزال يهيم[2]

ومن تشابه الأطراف فى الحديث النبوى ما روى " أَنَّ مُعَاذًا قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ

---

١ - من الآية ٣٥ من سورة النور .

٢ - البيت لأبى حية النمرى من قصيدة مطلعها : جزى الله أيام الفراق ملامة

ينظر : جواهر البلاغة للهاشمى ص ٣١٤ ، ٣١٥ - دار ابن خلدون .

مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ "[1] .

هذا الحديث الشريف يقرر فيه رسول الله ﷺ رسالة الدعوة إلى الله - تبارك وتعالى - ويرغبنا من طرف خفى إلى أن نكون دعاة إلى الله - سبحانه وتعالى - نبين للناس بأن لهم إلها واحداً لا شريك له ، وهو المعبود الحق الذى لا معبود سواه ، ونبين لهم حقوقه على عباده ، وما أعظم وما أشرف هذه المهمة التى كلف بها سيدنا معاذاً وطلبنا بها نحن مصداقا لقوله سبحانه وتعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[2] .

وقد اشتمل هذا الحديث على وجوه كثيرة من مراعاة النظير منها :

١ - اشتماله على المناسبة ، فالألفاظ قد وضعت بجوار بعضها فى نظم متماسك ورباط وثيق خذ مثلاً " فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنياهم فترد فى فقرائهم " حيث ناسب بين الأغنياء والفقراء فضلاً عن أن الأغنياء يناسبهم الأخذ لأن معهم أموالاً كثيرة يجب أن يخرجوا زكاتها حتى لا تكون أموالهم عليهم حسرة وندامة يوم القيامة ، والفقراء يناسبهم الرد ، لأن هؤلاء منع الله عنهم كثرة الأموال لحكمة يعلمها هو - سبحانه وتعالى - فكان الواجب علينا أن نرد إليهم حقوقهم التى افترضها الله لهم فى أموال الأغنياء ، لكى يعيشوا فى أمن وسلام بجوار الأغنياء .

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان - باب : الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - ١ / ٥٨ رقم ١٩ .

٢ - الآية ٣٣ من سورة فصلت .

٢ - واشتمل أيضاً على المؤاخاة بين الألفاظ ، حيث جاءت ألفاظ الحديث كلها على نسق واحد وهو الجمع فتلاحظ قوله " فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " وقوله "فإن هم أطاعوا " فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات " " فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم "" فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم " .

فتأمل كثرة ألفاظ الجمع التي وردت في الحديث مما زاد من روعته وبلاغته ﷺ .

٣ - اشتمل أيضاً على ائتلاف الألفاظ بعضها مع بعض ، حيث جاءت ألفاظ الحديث من أوله إلى آخره سهلة متداولة ليس فيها لفظ غريب بل كلها متداولة أضف إلى ذلك ائتلاف اللفظ مع المعنى فسبب سهولة هذه الألفاظ وتداولها أن هؤلاء حديثوا عهد بالإسلام محتاجون إلى ألفاظ سهلة متداولة قريبة الفهم ، حتى يستطيعوا أن يفهموا ما يلقيهم به سيدنا معاذ - رضي الله عنه - ، وبذلك تكون الألفاظ جاءت وفقاً للمعنى المراد .

٤ - اشتمل أيضاً على حسن النسق لأن كلمات الحديث جاءت متتالية ومتعاقبة منسوقة بعضها مع بعض بحرف العطف الفاء وجاءت مرتبة ترتيباً محكماً لا تستطيع معه تقديم كلمة على أخرى ولا فقرة على أختها لأن كل فقرة جاءت في مكانها المحدد ، فأول شئ أعلمه بأنه سيأتي قوما من أهل الكتاب ، ثم بعد ذلك عرض عليه برنامج الدعوى الذي يسير عليه " فادعهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله " هل يستطيع أحد أن ينكر بأن هذه الجملة هي أول جملة في الحديث وهي أول ما يبدأ به الداعي .

ثم بعد ذلك أمره أن يبين لهم فروض الصلاة وتأمل الاحتراس الجميل الذي أتى به الرسول ﷺ " فإن هم أطاعوا " ونطقوا بالشهادتين " فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة " وما زالت معاني الحديث تتسلسل في إحكام دقيق حيث أتى بعد الشهادتين بالصلاة لأن الصلاة هي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله ، فجميع الأعمال تتوقف عليها ، ثم بعد ذلك أمره أن يدعوهم إلى الزكاة " فإن هم أطاعوا لذلك " وقبلوا الصلاة " فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم وفي ختام الحديث يحذره من الظلم فيقول له " فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " فجاءت المعاني متناسقة ومتسلسلة ومترتبة ترتيباً دقيقاً معطوف بعضها على بعض بحرف العطف " الفاء " وكل جملة لو أفردت لأدت معنى مختصاً بنفسها ولم تفتقر إلى غيرها وإن ضم بعضها على بعض كانت بمثابة لوحة فنية رائعة .

٥ - اشتمل أيضاً على تشابه الأطراف ، ربما يتوهم متوهم أن نهاية الحديث " واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " لا تتفق مع ما قبلها ، لأن الحديث يدعوهم فيه إلى الدخول في الإسلام فما الذي أتى بهذه الجملة ها هنا؟ ولكن عندما نمعن النظر ونعيد الفكر نجد أن نهاية الحديث تتفق مع ما قبلها لأن من دعائم الإسلام التي أمره الرسول ﷺ أن يبلغها إياهم الصدقة التي تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم فمن أجل ذلك حذره الرسول ﷺ من الظلم بأن يأخذ من أحدهم أكثر مما افترضه الله عليه .

أضف إلى ذلك أن رسول الله ﷺ أمره أن يدعوهم إلى الإسلام فكان من المناسب أن يقول له : اتق دعوة المظلوم ولا تجبر أحداً على الدخول في الإسلام وتعبده إن لم تدخل ستفعل بك كذا وكذا ولكن تبين له دعائم الإسلام

وسماحة الإسلام فإن استجاب فقد أراد الله له الخير وإلا فديننا يتعالى عن ذلك علواً كبيراً بأن يجبر أحداً على الدخول في الإسلام ، وهذا رد قاطع للذين يقولون ويروجون لأكاذيبهم المسمومة بأن الإسلام قد انتشر بالسيف فنقول لهم : كذبتم ورب الكعبة وافتريتم على الله وعلى رسوله افتراءً عظيماً واقرؤا الحديث الذي نحن بصدد تحليله فستجدون رسول الله ﷺ يحذر سيدنا معاذ من الظلم بأن يجبر أحداً على الدخول في الإسلام .

ومن تشابه الأطراف أيضاً ما روى " عَنْ عُثْمَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ "[1].

في هذا الحديث الشريف يزف لنا الرسول ﷺ بشرى من أجل البشريات التي ترغبنا في المداومة والمداومة عليها وهي أن من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ، وعالمه هنا يستوجب أن تحجبه عن محارم الله وتجعله يطبق تعاليم الإسلام ويتمثل سنة رسول الله ﷺ وهذا الذي يبشرك به رسولنا ﷺ يبشره بدخول الجنة .

فلاحظ أن الحديث الشريف ختم بقوله " دخل الجنة " وهذه الجملة تناسب بداية الحديث فالله – سبحانه وتعالى – تفضل على عباده بأن من مات منهم وهو يعلم أنه لا إله إلا الله فسيدخل الجنة برحمته وكرمه .

ومن تشابه الأطراف أيضاً ما روى " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ "[2].

فقد ختم الحديث بجملة " ولكن الغنى غنى النفس " وهذه الجملة تناسب مع بداية الحديث لأن رسول الله ﷺ لما أشار إلى بداية الحديث بأن

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا

[2] أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس

الناس عند الله لا يوزنون بالذهب والفضة وإنما يوزنون بالأعمال الصالحة وأساسها غنى النفس بإيمانها بالله والتزام حدوده لأن المال عرض يزول والعمل الصالح للنفس المؤمنة خير وأبقى وبذلك تكون نهاية الحديث تناسب مع أوله من حيث المعنى .

ومن الجدير بالذكر : أن التناسب في " تشابه الأطراف " تناسب معنوي أو تناسب جملة الفاصلة بالجمل التي قبلها في صدر الآية أو الحديث ، أما التناسب الذي هو الوجه الأول من وجوه مراعاة النظير فتناسب بين مفردات في اللفظ والمعنى جميعاً[1] .

الوجه الثامن
اللف والنشر

وقد عرفه السيوطى بقوله : هو أن يذكر شيئان أو أشياء إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ثم يذكر أشياء على عدد ذلك كل واحد يرجع إلى واحد فى المتقدم ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به .

فالإجمالى كقوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ }[1] أى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى ، وإنما سوغ الإجمال فى اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة فوثق بالعقل فى أنه يرد كل قول إلى فريقه لأمن اللبس وقائل ذلك يهود المدينة ونصارى نجران

وقد يكون الإجمال فى النشر لا فى اللف بأن يؤتى بمتعدد ثم بلفظ يشتمل على متعدد يصلح لهما كقوله تعالى : { حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ }[2] على قول أبى عبيدة : إن الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل .

والتفصيل قسمان :

أحدهما : أن يكون على ترتيب اللف كقوله تعالى : { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ }[3] فالسكون راجع إلى الليل والابتغاء راجع إلى النهار .

---

١ - سورة البقرة من الآية ١١١ .
٢ - سورة البقرة من الآية ١٨٧ .
٣ - ينظر : الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٣٢٠ - ٣٢٢ .

والثانى : أن يكون على عكس ترتيبه كقوله تعالى "يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ "[1] .

وقال عنه بعض العلماء : هو ذكر متعدد مرتباً أو غير مرتب معكوساً أو مختلفاً ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، أى وهذا اعتماد يعنى الذكر بدون التعيين لأجل الوثوق بأن السامع يرده إليه يعنى يرد كل واحد من آحاد هذا المتعدد من متعلقاته إلى ما هو له لعلمه ذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية ، فالمرتب وهو أن يكون المتعدد على مثل التفصيل ، لأن النشر إما أن يكون على ترتيب اللف والثانى للثانى يعنى أن يرد الأول من النشر إلى الأول من اللف والثانى إلى الثانى وهلم جراً نحو قوله تعالى " وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ "[2] ذكر الليل والنهار على التفصيل ثم ذكر ما لليل وهو السكون فيه وما للنهار وهو الابتغاء من فضله على الترتيب .

وغير مرتب معكوس أى ويكون على غير ترتيب اللف وهو ضربان :

لأنه إما أن يكون الأول من النشر للآخر من اللف والثانى لما قبله وهكذا على الترتيب وليسمّ معكوس الترتيب نحو قول ابن حيوس :[3]

كيف أسلو وأنت حقف وغصن ∴ وغزال خطا[4] وقدا ورمقا

---

١ - سورة آل عمران من الآية ١٠٦ .
٢ - سورة القصص من الآية ٧٣ .
٣ - لقبه ابن حيوس الإشبيلى ورواه ابن حجة فى خزانة الأدب غير منسوب لأحد وابن حيوس هو : أبو القاسم محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس ، وهو أحد الشعراء المجيدين المحسنين ، وله ديوان شعر كبير وكان منقطعاً إلى بنى مرداس أصحاب حلب وذلك سنة ٤٩٤ هـ ، ت ٤٧٣ هـ .
٤ - فالخطا : أى الالتفات للغزال والقد للغصن والرمق للحقف والسلو : عدم التأثر من الشئ والمعنى : كيف أسلو بين جنبك ودواعى الغيرة من حسن القد وتعطيل القلب وهو قريب موجودة فيك وأنت حبيبة لبيبة .

والمختلط أى الثانى : وهو ما يكون مختلط الترتيب نحو : هو شمس وأسد وبحر جوداً وإباء وشجاعة : فالجود للبحر والإباء للشمس والشجاعة للأسد .

وأن يكون ذكر المتعدد على سبيل الإجمال نحو قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى } فإن الضمير فى قالوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فاللف مجمل والنشر مفصل فذكر الفريقان على الإجمال بالضمير العائد إليهما ثم ذكر ما لكل منهما فالمتعدد المذكور إجمالاً هو الضمير فى قالوا أى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين نفس الفريقين والقولين إجمالاً لعدم الالتباس أى ما بعد قالوا إنه بتمامه غير منسوب إلى جميع من أريد بالضمير فى قوله : قالوا والاعتماد بأن السامع يرد إلى كل فريق أو كل قول مقولته للعلم بتضليل كل فريق صاحبه حتى لا يثبت له الدخول فى الجنة فيكون قوله : إلا من كان هودا من تتمة قول اليهود وقوله : أو نصارى من تتمة قول النصارى وليس المراد أن كل فريق من اليهود والنصارى قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى حتى لا يكون فيه لف ونشر واعتقاد كل فريق أن داخل الجنة هو لا صاحبه ولا يتصور فى هذا الضرب الترتيب وعدمه [1] .

ومن خلال كلام العلماء عن اللف والنشر يتضح لنا أن اللف والنشر نوعان :

الأول : أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة التفصيل وهذا النوع ضربان :

أولهما : أن يكون النشر على ترتيب اللف كما سبق فى قوله تعالى: { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ..} فقد ذكر متعدد وهو " اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ " على جهة التفصيل حيث عطف النهار على الليل بواو العطف ثم ذكر ما لكل مرتباً فالسكن يرجع لليل وابتغاء الفضل يرجع للنهار .

---

١ - ينظر : خلاصة المعانى للحسن بن عثمان بن الحسين المكى ص ٤٢٣ - ٤٢٤ - طبعة دار الاعتصام

ثانيهما : أن يكون النشر على غير ترتيب اللف كما سبق فى قول ابن حيوس :

كيف أسلو وأنت حقف وغصن ∴ وغزال لحظا وقدا وردفا .

فاللف هو " حقف وغصن وغزال " والنشر " لحظا " ويرجع إلى الغزال و " قدا " ويرجع إلى الغصن ، و" ردفاً " ويرجع إلى الحقف وواضح أن النشر على غير ترتيب اللف .

الثانى : أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة الإجمال كما سبق فى قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ... } فالضمير فى قالوا يرجع لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف القولين وجمعهما فى الضمير " قالوا " على جهة الإجمال ثم ذكر النشر " هوداً أو نصارى " بدون تعيين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله لما علم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه وهذا النوع كما ذكر بعض البلاغيين المحدثين لا يقتضى ترتيباً أو عدم ترتيب لأن اللف مجمل لا يعلم ترتيبه حتى ننظر فى ترتيب النشر على صونه[1]

ومن الأحاديث التى اشتملت على اللف والنشر عن ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ : مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ ، قَالُوا : هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ[2] كَذَا وَكَذَا [3] .

---

١ - ينظر : علم البديع - د/ بسيونى عبد الفتاح ص ٢١١ - ٢١٢ .

٢ - والنوء لغة : النهوض بثقل يقال ناء بكذا إذا قصد به منطلقاً ومنه قوله تعالى : { لتنوء بالعصبة } أى : لتثقلهم عند النهوض .

٣ - أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان - باب : بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١ / ٩١ رقم ٧٣

هذا الحديث من النوع الأول ، حيث ذكر المتعدد فيه على جهة التفصيل وجاء النشر على ترتيب اللف انظر إلى قوله ﷺ " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر " فهذا اللف جاء مفصلاً ثم ذكر بعد هذا اللف النشر وهو قوله ﷺ " قالوا : هذه رحمة الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا " فالنشر ذكر على ترتيب اللف حيث من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك شاكر لفضل الله ورحمته ومعترف بأن كل شيء بيده وحده لا شريك له ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بالله والعياذ بالله وظاهره أنه الكفر الحقيقي لأنه قابل به المؤمن الحقيقي فيحمل على من اعتقد أن المطر من فعل الكواكب وخلقها لا من فعل الله تعالى كما يعتقده بعض جهال المنجمين والطبائعيين والعرب فأما من اعتقد أن الله تعالى هو الذي خلق المطر واخترعه ثم تكلم بذلك القول فليس بكافر لكنه مخطئ من وجهين :

أحدهما : أنه قد خالف الشرع فإنه قد حذر من ذلك الإطلاق .

والثاني : أنه قد تشبه بأهل الكفر في قولهم وذلك لا يجوز لأنا قد أمرنا بمخالفتهم فقال " خالفوا المشركين وخالفوا اليهود " ونهانا عن التشبه بهم وذلك يقتضي الأمر بمخالفتهم في الأفعال والأقوال "[1] .

وذكره ﷺ كما ترى بدون تعيين ثقة بأن السامع يدرك ما لكل ويرده إليه فهو يدرك بأن من يقول مطرنا بفضل الله ورحمته فهذا هو المؤمن الذي يعتقد بأن كل الأشياء بيد الله وحده لا شريك له ومن يقول مطرنا بكذا وكذا فهذا كافر بالله إلا إذا كان معتقدا بأن الله هو الذي خلق المطر واخترعه ولكنه تكلم بذلك فليس بكافر ولكنه مخطئ كما سبق بيانه .

وتكمن بلاغة اللف والنشر في قول سيدنا رسول الله ﷺ السابق حيث إن ذكر اللف في قوله " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر " يهيئ النفوس

---

١ - المفهم شرح صحيح مسلم ١ / ٢٢٨ .

وبعدها لتلقي ما يذكر بعد من النشر العائد إلى اللف " قالوا : هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا " وفي هذه اللحظة يقع النشر في النفوس موقعه ويتمكن في الأذهان ويرسخ في الوجدان وبذلك يكون الرسول ﷺ حقق غرضه أبلغ تحقيق لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة .

ومن اللف والنشر أيضاً ما روى " عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ ، وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً "[1] .

فهذا الحديث أيضاً من النوع الأول وهو ذكر المتعدد على جهة التفصيل وقد جاء النشر على ترتيب اللف فقوله ﷺ " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء " فهذا لف متعدد على جهة التفصيل ثم ذكر ما لكل مرتباً " كحامل المسك ونافخ الكير "فحامل المسك يرجع إلى الجليس الصالح ونافخ الكير يرجع إلى الجليس السوء .

ومن اللف والنشر أيضاً ما روى " عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، إِذْ أَقْبَلَ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ : فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب : استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء ٤ / ٢٣٦ رقم ٢٦٢٨ .

فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ "[1].

ففى هذا الحديث لف ونشر من النوع الثانى وهو ذكر المتعدد على جهة الإجمال حيث ذكر ﷺ قوله " إذ أقبل نفر ثلاثة " فالإقبال يشمل هؤلاء الثلاثة الذين أتوا على رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد وأحدهما رأى فرجة فجلس فيها والثانى جلس خلف الحلقة والآخر أدبر ذاهبا فأجمل كل ذلك فى قوله " إذ أقبل نفر ثلاثة " ثم جاء النشر " فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال : فوقفنا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا .

وكذا قوله ﷺ فى نفس الحديث " ألا أخبركم عن النفر الثلاثة " فهذا ذكر متعدد على جهة الإجمال ؛ لأن الإخبار يشمل هؤلاء النفر الثلاثة ثم جاء النشر " أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه " فضلاً عن المشاكلة الذى يشتمل عليها الحديث فى قوله " أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه " فإيواء الله للأول واستحياؤه من الثانى وإعراضه عن الثالث كل ذلك على جهة المشاكلة .

ومن اللف والنشر أيضاً ما روى " حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ : يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ "[2].

---

١ - أخرجه مسلم فى كتاب السلام - باب : من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم ٤ / ١٥١ رقم ٢١٧٦ .

٢ - أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب : استحباب الإبراد بالظهر فى شدة الحر لمن يمضى إلى جماعة ويناله الحر فى طريقه ١ / ٤٤٧ رقم ٦١٧

فى هذا الحديث لف ونشر من المتعدد الذى ذكر على جهة التفصيل ولكن جاء النشر على غير ترتيب اللف فقوله ﷺ " فأذن لها بنفسين : نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف " فهذا اللف ذكر على وجه التفصيل ثم جاء النشر " فهو أشد ما تجدون من الحر يرجع إلى نفس الصيف وأشد ما تجدون من الزمهرير يرجع إلى نفس الشتاء وواضح أن النشر على غير ترتيب اللف ، حيث قدم نفس الصيف على نفس الشتاء ، ولكن فى اللف جاء نفس الشتاء مقدما على نفس الصيف ، ولعل السر فى تقديم نفس الصيف فى النشر ، لأن الناس تعانى من شدة الحر أكثر مما تعانى من شدة البرد لأن شدة البرد قد يجد لها الناس حلاً وهو كثرة الغطاء أما شدة الحر فحتى طرق التهوية كالمراوح والمكيفات قد لا تحل مشكلة الحر لأن المراوح قد تستعمل ولا تخفف من شدة الحر شيئاً ، والمكيفات قد تتعب الناس وبخاصة عندما يخرجون من أماكنهم المكيفة إلى جوهم العادى فيشعرون بتعب . والله أعلم .

الخاتمة

الحمد لله كريم العطاء واسع الفيض كثير الفتح والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم ومثله معه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين

وبعد

فقد حاولنا فى هذا البحث أن نثبت أن مصطلح " مراعاة النظير " يصلح لأن يتوسع فى معناه ليضم وجوها من البلاغة تتفق مع مسماه فلا يقتصر معناه على جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد بل يتعدى هذا المعنى ليشمل معانى أخرى بينها وبين مصطلح مراعاة النظير صلة قوية كالمؤاخاة والائتلاف والمشاكلة وحسن النسق والانسجام وتشابه الأطراف واللف والنشر، فكل هذه المعانى تصلح أن تكون وجوهاً لمراعاة النظير لأن إطلاق مسماه يشمل تلك المعانى .

أضف إلى ذلك أن محاولتنا جمع هذه المعانى تحت مصطلح "مراعاة النظير" فيها تيسير على تحصيل الدرس البلاغى وخاصة فى علم البديع الذى بلغت ألوانه ما يفوق على المائة، مما أثقل كاهل الباحث البلاغى من كثرة هذه الألوان وتداخلها وتشعبها، فجمع هذه المعانى تحت مصطلح واحد فيه تقليل للألوان البديعية .

كما أننا حاولنا فى هذا البحث أن نثبت أن علم البديع ليس علماً عرضياً كما ذهب بعض العلماء وقال بأنه يأتى لمجرد الحلية والزينة فمن خلال وجوه مراعاة النظير ثبت أن علم البديع علم مستقل له تأثير كبير على المعنى وقد رأينا ذلك من خلال تحليلنا للأحاديث التى استشهدنا بها وكان علم البديع له فيها تأثير قوى على المعنى وليس لمجرد الزينة والزخرفة الشكلية فحسب بل إن التحسين الذى يضيفه على الكلام تحسين ذاتى يقتضيه المقام وتستدعيه الحال

أما نظرة الخطيب ومن لف لفه إلى كون هذه الفنون لمجرد الزينة والتذويق وكون حسنها حسناً عرضياً فلعلها نظرة بعيدة عن الصواب تتنافى مع ما تضيفه تلك الفنون على المعانى من جمال ومزايا. فضلاً عن أن علم البديع أكسب الأسلوب النبوى جمالاً وحسناً وبهاءً ؛ لأنه جاء سهلاً مطبوعاً غير مصنوع ولا تكلف تابعاً للمعنى خادماً له دون إسراف وهذا هو ما رأيناه فى كلام رسول الله ﷺ .

أضف إلى ذلك إلى أن اشتمال أحاديث رسول الله ﷺ على وجوه مراعاة النظير الثمانية دليل واضح على بلاغته ﷺ العالية ودقة استعماله للألفاظ فإنه كلام مستمد معناه من عند الله عز وجل : { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى }[1] .

كما أثبت البحث أن لغة البيان النبوى تتسم بالإيجاز والإعجاز وأن الأسلوب النبوى تظهر بلاغته فى نظم المفردات ذلك النظم البديع الذى يؤاخى بين المبانى والمعانى ويستعمل الألفاظ المناسبة لكل معنى ويأتى بالألفاظ المتجاورة المتآلفة . كما أن الحديث النبوى يحتاج إلى فهم دقيق للوقوف على أسرار بلاغته واستخراج درره والبحث عن لآلئه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د / البدرى فؤاد عبد الغنى

---

١ - الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

أهم المصادر والمراجع

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى - دار عالم المعرفة ..

٢ - الإتقان فى علوم القرآن - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

٣ - أحاديث نبوية شريفة - د / محمود فرج العقدة - دار الطباعة المحمدية .

٤ - أدب الحديث النبوى - تأليف / بكرى الشيخ أمين ..

٥ - الإشارات والتنبيهات لمحمد على الجرجاني- تحقيق .د / عبد القادر حسين - مكتبة الآداب ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ..

٦ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - تأليف / مصطفى صادق الرافعى - دار الفكر العربى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م ..

٧ - الإيضاح للخطيب القزوينى - تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي - الطبعة الثالثة - المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٨ - البداية والنهاية لابن كثير - دار إحياء التراث العربي ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .

٩ - بديع القرآن - تحقيق د / حفني محمد شرف - نهضة مصر للطباعة والنشر .

١٠ - بغية الإيضاح - لعبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

١١- تاريخ بغداد - للخطيب البغدادى - دار الكتب العلمية - بيروت ..

١٢ - تحرير التحبير - تحقيق . د / حفني محمد شرف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م ..

١٣- تذكرة الحفاظ للذهبي - دار الفكر العربي ..

١٤- التصوير الفنى فى الحديث النبوى - تأليف الدكتور / محمد بن لطفى الصباغ -الأولى - المكتب الإسلامى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

١٥- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى - الطبعة الأولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند سنة ١٣٢٧ هـ ..

١٦- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى - دار الدعوة ..

١٧- جواهر البلاغة - دار ابن خلدون ..

١٨- جوهر الكنز - الجزء الأول فى البديع - تحقيق د/ محمد زغلول سلام - دار نشر منشأة المعارف ..

١٩- الحديث النبوى من الوجهة البلاغية - د / عز الدين على السيد ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣م ..

٢٠- خزانة الأدب وغاية الأرب - شرح عصام شعيتو - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت - لبنان ..

٢١- خلاصة المعانى للحسن بن عثمان بن الحسين المقنى - طبعة دار الاعتصام

٢٢ - دراسات تربوية فى الأحاديث النبوية - د/ محمد لقمان الأعظمى الندوى ص ٤٠٠ - مكتبة العبيكان - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ .

٢٣- دراسات فى علم البديع - تأليف أ . د / عبد المنعم سيد عبد السلام .

٢٤- دلائل الإعجاز - لعبد القاهر الجرجانى - تحقيق / محمود محمد شاكر - مطبعة المدنى - الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م ..

٢٥- دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين - تأليف / محمد علاب الصديقى الشافعى الأشعرى - تحقيق / عصام الدين الصبابطى - الطبعة الأولى - دار الحديث ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م ..

٢٦ - ديوان أبي نواس - شرح أ / على فاعور - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ..
٢٧ - ديوان البحترى - دار الكتب العلمية -ط الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .
٢٨ - ديوان ذى الرمة - الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .
٢٩ - ديوان عمر بن أبي ربيعة - دار صادر - بيروت ..
٣٠ - ديوان الكميت - الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت ٢٠٠٠م .
٣١ - ديوان المتنبي - المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان ..
٣٢ - سنن أبي داود - تحقيق/محمد محيى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية .
٣٣ - سنن الدارمى - الطبعة الأولى - دار الريان ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م..
٣٤ - سير أعلام النبلاء للذهبى - دار الفكر - ط الأولى ١٤١٧ هـ /١٩٩٧م..
٣٥ - شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع - تحقيق د/ نسيب نشاوى - دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ..
٣٦ - صحيح مسلم بشرح النووى- تحقيق عصام الصابطي وحازم محمد وعماد عامر - دار الحديث ط الأولى١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م
٣٧ - الضوء اللامع المبين عن مناهج المجددين أ . د / أحمد محرم الشيخ ناجى - مطبعة الصفا والمروة - الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
٣٨ - الطراز للعلوى - دار الكتب العلمية - بيروت ..
٣٩ - علم البديع " دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع " - د / بسيونى عبد الفتاح فيود ..
٤٠ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى - للإمام العينى - دار إحياء التراث العربى - بيروت ..

٤١ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى - تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رقم كتبه وأبوابه / محمد فؤاد عبد الباقى - دار الحديث - ط أولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م ..
٤٢ - الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى - تحقيق / أبى عمرو عماد زكى - المكتبة التوفيقية ..
٤٣ - كتاب السراج المنير شرح الجامع الصغير فى أحاديث البشير - للشيخ/على بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العزيزى - مكتبة الإيمان ..
٤٤ - الكشاف للزمخشرى - دار الفكر ..
٤٥ - لسان العرب لابن منظور - تصحيح / أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدى - دار إحياء التراث العربى - الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م ..
٤٦ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر - لابن الأثير تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ..
٤٧ - مراعاة النظير في كلام الله العلي القدير - د / كمال الدين عبد الغني المرسى - دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠ م ..
٤٨ - مفتاح العلوم للسكاكى - تحقيق / نعيم زرزور - الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ..
٤٩ - المفهم شرح صحيح مسلم للقرطبى - دار الكتاب المصرى ..
٥٠ - من صور البيان النبوى " قصة فى حديث " - تأليف أ. د / رزق عمه داود - الجزء الأول - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ..
٥١ - من أسرار البيان النبوى . د / أحمد محمد على - الطبعة الأولى - دار الصحوة - ١٤٠٦ - ١٩٨٥ م ..

٥٢ - من كنوز السنة للشيخ محمد على الصابوني -دار الجيل ٢٠٠١ م .

٥٣ - المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج - ليحيى بن شرف بن مرى النووى - المكتبة الأزهرية ..

٥٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - لابن خلكان - تحقيق د / إحسان عباس - دار صادر - بيروت ..